اقرأ
حواء

منيرة كفافي

في ذكرى ١٥ مايو ١٩٤٨

عندما استُشهِدَ أبي!

(العزف على أوتار الذكرى)

منيرة كفافي

في ذكرى ١٥ مايو ١٩٤٨

عندما استُشهِدَ أبي!

(العزف على أوتار الذكرى)

اقرأ ٣٩٧

دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع.

إهـــداء

إلى روح أبى . . .

إلى كل شهداء فلسطين . . .

إلى مصر التى كانت ولا تزال تدفع الثمن . خاضت أربع حروب ، وفقدت حتى الآن ٨٠ ألف شهيد، وكان والدى أحد الذين سقطوا فى أول حرب . وكان ضحية الأسلحة الفاسدة التى فجرت معها ثورة ١٩٥٢ .

لقد ثأر الجيش والشعب لدم أبى :

شكراً يا زميل أبى فى السلاح .

شكراً يا سادات ، لأنك ثأرت لكل شهدائنا .

منيرة كفافى

تقديم

بقلم : فريق أول طيار

محمد سعد الدين الشريف

مستشار رئيس الجمهورية لشئون الطيران المدنى

كنت دائماً أفكر فى حرب ١٩٤٨ وذكرياتها وأبطالها : من نال منهم شرف الشهادة ، ومن كان له شرف الخدمة والاستمرار فى تعليم دفعات جديدة من الطيارين التى ساهمت فى تحقيق النصر ، بالاشتراك مع قواتنا المسلحة . وأسعدنى الحظ يوماً أن أجد أمامى الإبنة منيرة كفافى ، بنت شقيق وابن دفعتى المرحوم الشهيد قائد الأسراب محمد عدلى كفافى ، الذى كان من أبرز طيارى سلاح الطيران الملكى المصرى . وكان وجوده بيننا ظاهرة فريدة فى الكفاءة والجرأة وحب السلاح والأخلاق الكريمة والوطنية المنقطعة النظير . وروت لى السيدة منيرة كفافى أنها بصدد إعداد كتاب تتكلم فيه عن والدها الشهيد الراحل .

وأحسست فجأة بسرعة الزمن ، فبعد مرور أكثر من ربع قرن تأتى منيرة الطفلة الذكية وقد أصبحت سيدة شابة ، تريد كتابة جزء من تاريخ مصر . ولقد كنت أتصور أن يقوم بتسجيل هذا العمل التاريخى واحد من محترفى الحرب أو محترفى الكتابة فى مثل تلك المواضيع المتخصصة ، وروت لى أيضاً أنها بذلت جهداً كبيراً لتجميع المعلومات عن البطل

الشهيد . واستمرت فى جمع المعلومات وتحقيقها أكثر من ٤ أعوام، وكان ذلك عن طريق اتصالها بزملاء أبيها فى السلاح ، إنه لمجهود رائع منها. ولمست فيها لمسة وفاء فى وقت عز فيه الوفاء . ثم اطلعت على مسودة الكتاب فأعجبنى ،لأنه يتناول موضوعاً لم يطرق كثيراً بعد، بينما نحن فى أشد الحاجه إلى تسجيله . تسجيل حياة أبطالنا نسور الجو ليكونوا لنا نقطاً مضيئة فى تاريخ العسكرية المصرية وتاريخ مصر الوطنى،وكان للكتاب عدة أسماء مقترحة منها (زهرة فى حديقة الحياة) و(العزف على أوتار الذكرى). وكل من المعنيين له مغزاه ، ولست أدرى ما رأى الناشر فى هذه الأسماء، وهل ستتغير أم سيتم اختيار اسم آخر ، فلست خبيراً بموضوع النشر.

وفى هذا الكتاب أحاسيس الكاتبة الصغيرة سنًّا ، وبالنسبة لى فهى ابنة عزيزة بنت راحل عزيز ، أحاسيس ابنة لم تر والدها كما يرى أكثر الأبناء والبنات آباءهم ، وهى لم تتجاوز بعد الرابعة من عمرها .

اتمنى لابنتى منيرة بهذه اللمحات البسيطة كل توفيق وسداد فيما قدمته وتقدمه كأول إنتاج لها من الكتب ، علاوة على ما تقدمه من برامج هادفة فى التليفزيون المصرى . وكان الله سبحانه وتعالى فى عونها وعوننا، والله أكبر والعزة للعرب .

سعد الدين

هذا الكتاب . . .

هذا كتاب من طراز نستطيع أن نقول إنه جديد ، عسى أن يكون فاتحة لنوع غير شائع كثيراً فى أدبنا الحديث، وإن كان معروفاً فى الآداب الأخرى المعاصرة . .

كتبته ابنة افتقدت أباها منذ كانت فى الثالثة من عمرها ، فلما تفتق وعيها ، وبرح بها الشعور بالوحدة والحرمان ، راحت تبحث عنه . .

كل ما كانت تعرفه عنه كان صورة الأب التى انطبعت فى ذاكرة الطفلة العزيزة ، ثم ما سمعت عن بطولته واستشهاده ، عندما تفتح وعيها . . . فهو لم يكن أباً من طراز عادى . .

ولكنها ظلت تصبو إلى مزيد تعرفه عنه . وأخذت هذه الحاجة تنمو وتزداد مع نموها فى مدارج العمر ، ومع ازدياد نضج وعيها ، واتساع إدراكها وآفاق فكرها . .

وتحت إلحاح هذه الحاجة ، لم تشأ أن تقنع بالصورة ونتف الذكريات ، فانطلقت تبحث عن الدقائق التى تكتمل بها الصورة وتبث فيها الحياة ، والتى تثبت الذكريات وتبعث فيها نضرة . .

على أن الابنة الكاتبة حرصت على أن تكون أمينة ، فلم تدع العواطف الملهوفة إلى أبيها تجرفها ، وتزين لها الوشى الجميل ، والألوان البراقة ، بل اتبعت ما استطاعت منهجاً علمياً موضوعياً ، مما لم يكن معه مناص

من أن تنساق إلى التنقيب عن دقائق الأصل الذى نبع منه ، وأحداث الوطن الذى أنجبه ، وتطورات المجتمع الذى أحاط به ، وانعكاسات البيئة التى نبت فيها ، والوسط الذى نشأ فيه . .

وإذا هذه الدقائق جميعا تشكل صورة حية للوطن فى قرن من الزمن أو أكثر ، منذ ثورة « عرابى » وما سبقها من إرهاصات . . وإذا هذه الدقائق تشكل كذلك صورة حية للبطل ذاته ، أبى الكاتبة الباحثة . . وإذا الصورتان — صورة الوطن وصورة الأب — تختلطان بالرغم من اتضاح معالم كل منهما على حدة ، بل تمتزجان .

وإذا البطل صورة نابعة من الوطن ، وإذا الوطن صورة شاملة تحتضن البطل . . البطل المنشود بالبحث ، وكل بطل أنجبته مصر الطيبة ، العريقة ، المجيدة . . أمّ البطولة ، وأم التضحيات !

. . . . . .

. . . . . .

ولقد يقول قائل عند هذا الحد : إن هذا النوع من تسجيل السيرة الشخصية خلال الوسط والأحداث التى عاشت فيها ، ليس بالشئ الجديد فى أدبنا الحديث — فكتب السير معروفة فيه من قبل . وهذا صحيح ، ولكن الكتب التى من هذا النوع تناولت شخصيات مبرزة ، وأبطالا تألق إشعاع بطولاتهم ، وتوفرت آلاف المراجع والمصادر الناطقة بكل صغيرة وكبيرة فى سيرهم . . أما محاولة كاتبة هذا الكتاب ، فتناولت بطلا ، شاءت الظروف أن تظل شخصيته وشخصيات زملائه

مغمورة إلى حد كبير ، وأن تتوارى سيرته وسير زملائه وسط الأحداث الدافقة التلاحق خلال ربع القرن الأخير . .

ثم إن أسلوب الكاتبة فى البحث والعرض ، نأى بالقصة عن أن تكون ذكريات شخصية ، وجعل منها صفحة عامة لفترة من فترات تاريخنا . . . تاريخ مصر .

ومن هنا قلنا إنه كتاب من طراز نستطيع أن نقول إنه جديد . . .

دبّوس في جوف البحر

« . . . وكان علىّ أن أصنع من هذه الأشياء البسيطة صورة متكاملة لرجل تمنيت طوال ليالى العمر أن أسمع صوته » .

ثمة تجربة مشتركة يمر بها كل من يتصدى لعمل من أعمال الفكر ، تجربة المعايشة القلقة المتوترة للموضوع الذى يفكر فيه . . فما من كاتب يمكنه أن يفرّمن هذه التجربة ، إذ أنها تشكل بالنسبة له عبءاً أدبيًّا لا يشعر سواه بتخلُّقه فى أعماقه وتطوره فى داخله .

ولقد مررت بهذه التجربة طبعا ، وتحملت كل ما فيها من حلاوة ومرارة ، لا سيما أن هذا الكتاب هو تجربتى الأولى .. تجربة لها كل ملامح التجارب الأولى وحيرتها بين التردد والاندفاع .

ولقد أحسست ، وأنا بصحبة كلمات هذا الكتاب ، بإحساس المقاتل داخل خندقه ، تحاصره الأفكار من كل مكان ، وتفرض عليه حياة مقيدة . . ومن ثم فلابد من أن يجد منفذاً — بعيداً عن الأفكار التى تحاصره — تحت سيطرته ، ليتخلص من مشاعر المحاصرة . فالكاتب — أى كاتب — يواجه دائماً عشرات من التساؤلات تنصب عليه من كل النواحى . . . تهاجمه بغير شفقة أو رحمة . . تدق رأسه بكلمات الاستفهام الخالدة ، فهو يسأل نفسه دائما : لماذا يريد أن يكتب ؟. . وماذا سيكتب ؟ . . وكيف ؟ . . ومتى ؟.. وأين ؟ . . إلى آخر هذه السلسلة الطويلة من علامات الاستفهام ، التى تحاصر الكاتب فتعذبه دائماً . . وتتعذب من كثرة محاولاته للتخلص منها !

ولا شك فى أن الكاتب — وهو يتعامل مع هذه السلسلة من علامات

الاستفهام – يشعر بشعور الصياد الذى يلقى شباكه ذات يوم يدرك أن البحر فيه قليل العطاء . . ولكنه لا يملك فى النهاية غير شرف المحاولة ، فيلقى بالشباك !

• • •

هذه الصفحات المتواضعة عن رجل استشهد فى حرب فلسطين . . رجل عادى قد لا يعرفه أحد ، وقد لا تهمّ قصته أحداً ، ولكننى وحدى من بين خلق الله عرفته خلال أوثق الروابط وتهمنى حكايته ، وأسعى إلى معرفة كل تفاصيلها بعد أن غابت عنى سنوات طويلة . . لأن هذا الرجل هو الأصل فى وجودى ، هو أبى !

ولكن لماذا إذن أكتب عن أبى ؟

ربما كان دافعى تلك العلاقة السرية الغامضة ، التى يولّدها غياب الأب فى وجدان ابنة كانت فى الثالثة من عمرها عندما غاب . . ربما كان دافعى هو ذلك الشوق المستمر الذى رافقنى ليالى العمر كله ، الشوق إلى أن أسمع صوته ، وأتبادل معه الهموم ، وأبكى فوق صدره . . وربما كان أيضاً ذلك الأسلوب الذى اختاره الله ليفرّق به بيننا . . فقد كنت – حين افترقنا – أسير فوق الأرض لاتكاد قدماى تحملانى ، وهو يقطع السماء طولا وعرضاً . . حتى هوى كشهاب مضىء ، قصير العمر . . ثم لأن ارتباط أبى بقضية فلسطين يحرّك فى وجدانى كل تجربة

المعايشة اليقظة لهذه القضية ، فكأنني هنا أرى فلسطين وما جرى فوقها ، أراها من خلال نافذة طائرة أبي وهي تعانق سماءها ، في محاولة لحماية أرضها حتى النهاية !

ولقد عشت قبل أن أفكر في عمل هذا الكتاب تجربة مثيرة فعلا . . فأنا لم أعرف في حياتي أبًا ! . . أسقط القدر مشاعر البنوة من عمري . . وعلى مدى السنين ، كنت ألتقي ببعض من يشغلون مناصب مرموقة ، فكان اسم « كفافي » المضاف إليه اسمي يستوقفهم . . ويتكرر السؤال :

— هل أنت قريبة لمحمد عدلي كفافي ؟

وكنت أجيب ببساطة تبدو لمن يسمعها ساخرة :

— نعم . . قرابة بسيطة . . ابنته !!

وكانوا بلا استثناء يغمرونني بالحنان . . يقدمون لي المساعدات . . يعاملونني كابنة لهم . . وأعترف بأن هذا الموقف المتكرّر قد أثار فضولي وكانت نفسي تطرب له . . ؛ فمن هو « محمد عدلي كفافي » هذا ، الذي يقابلني اسمه في كل مكان وأكاد أشعر أنه يطوي حياتي كلها تحت عباءته ، ويفرض احترام الآخرين لي . . حتى وهو في القبر ؟! . . من يكون هذا الرجل الذي يعرف الكثيرون عنه الكثير ، ولا أعرف أنا عنه شيئا . . رغم أنني إحدى بصماته فوق درب الزمن ؟ !

وقررت أن أعرف . . . فكانت هذه الصفحات . .

هذا الكتاب إذن عن أبى الشهيد « محمد عدلى كفافى » . . والدوافع إلى كتابته يتداخل فيها العام والخاص، ولكن . . كيف أبدأ رحلة البحث عن أبى ؟ . . كيف أكتب عنه ، وليس عندى الكثير ؟ . .

لقد بدا لى الأمر — حقيقة — كالبحث عن دبوس ضاع فى جوف البحر . . وفى يوم عاصف ؟

وذهبت أطرق كل الأبواب . .

ذهبت أولا — ومعى الصبر والأمل — أبحث بين رفوف المكتبات ، فوجدت كتبها شحيحة وكلماتها بخيلة ، وعطاءها ضنينا . . ليس فى مكتباتنا — للأسف — كتاب واحد يصنع سجلا متكاملا ، أو حتى شبه متكامل ، لشهدائنا على مر التاريخ . . وهكذا وجدت هذا الطريق يُغلَق تدريجيًّا فى وجهى .

وذهبت ثانية — وما زلت أتشبث بالأمل — أبحث فى الأصل ، عسى أن يوصلنى إلى الفرع . ذهبت أبحث عن الكتب الخاصة بقضية فلسطين ، ورجال الجيش المصرى ودورهم فيها . . فكانت المفاجأة الثانية : أن هذه القضية التى تشغل مركز الدائرة فى الاهتمامات العربية طيلة الثلاثين السنة الأخيرة، لم تنل العناية الواجبة، والتى هى أهل لها، من المؤرخين العرب . . فكل ما هو مكتوب عنها لا يتعدى النقل والترجمة عن مؤلفات أجنبية ، أو يدخل تحت الكتابات السريعة اللاهثة ، التى تبحث

عن النشر أكثر مما تبحث عن التاريخ الموضوعى . وهكذا ، وللمرة الثانية ، وجدت الطريق يغلق تدريجياً فى وجهى !

وفى مثل حالتى هذه ، لابد أن يصاب الكاتب بالدوار ثم بالإحباط ، فإن غياب المراجع المسجلة الموثقة يفتح الباب على مصراعيه للاحتمالات . . وما أقسى التعامل مع الاحتمالات ، خصوصا لمن كان فى تجربته الأولى فى الكتابة ، بكل ما تحمله التجارب الأولى من قلق !

خطر لى — ثالثا — أن أبحث عن حكاية أبى ودوره فى فلسطين ، من خلال رفاقه فى السلاح ، ممن لا يزالون منهم على قيد الحياة . وطرقت الأبواب فى حرص شديد على أن يكون الأمل برفقتى . . وكانوا كرماء معى حقاً لا سيما فى الحديث عن أبى ، إذ كان ذلك يمس فى أعماقهم ذكريات فترة شبابهم . . فهو حديث له جاذبية مؤكدة ، خاصة عند فرسان السلاح : جلست طويلا إلى الفريق طيار « محمد سعد الدين الشريف » ، واللواء « عمر شكيب » ، واللواء « عبد المجيد الرافعى » ، واللواء « يحيى الشناوى » ، واللواء « عبد الرحمن عنان » ، والعميد « أبو بكر موسى » . .

ولقد حاول كل واحد من هؤلاء قدر إمكانه أن يعود بذاكرته إلى الوراء . . يتذكر شبابه وما حدث فيه ، ثم يركز تفكيره على علاقته بأبى . . ما كان . . وما كان معه ! . .

لقد بذل كل منهم أقصى ما يستطيع حقاً ، كى ينير الطريق أمامى ،

ولكن . . حتى هذه المصدر الذى بدا – فى ظاهره – ثرياً وعامراً بالمعلومات، حملنى وألقى بى من جديد فوق أمواج البحر . . إذ أن المعلومات التى رواها كل منهم عن أبى ، اعتمد فيها على ذكرياته الشخصية ، وعلى نوعية علاقته بأبى ، ومدى قربه منه وابتعاده عنه . . وهى امتيازات لها أهميتها قطعا ، ولها أيضاً مخاطرها .

فقد أحسست بعد أن جلست إليهم طويلا ، أستمع إلى ذكرياتهم الشاحبة عن أبى ، أننى أعود من جديد إلى الحيرة تأخذنى بلا رحمة إلى شاطئ من الصخور . . إذ تعددت صورة أبى فى ذكريات كل منهم إلى الدرجة التى خيل إلىّ فيها أن لى أكثر من أب !!

وبالرغم من هذا ، فما كان من الممكن الاستمرار فى الكتابة بغير معلومات جيل أبى من الأحياء . ولقد أوصلتنى لحظات الحيرة إلى أنه لا مناص من أن أجمع من أفواه الرواد فى الجيش المصرى وسلاح الطيران – ممن هم على قيد الحياة – كل ما لديهم من معلومات، بل إن هذا هو الطريق الطبيعى لحفظها وتسجيلها بكافة وسائل التسجيل ، وتقديمها هدية للجيل الحالى وللأجيال القادمة .

وهكذا كان كل رصيدى ، فى هذه التجربة : بضع معلومات متفرّقة عن فلسطين وكفاح الجيش المصرى فيها ، قدمتها لى المراجع الشحيحة . . وبضع ذكريات متشابهة أحياناً ، ومختلفة غالباً ، قدمها

إلىّ رفاق أبي فى السلاح . . وبضع أوراق وصور وكلمات ، قدمتها لى أمى وأقاربى ، ممن عاشوا هذه الفترة . .

وكان علىّ فى النهاية ، أن أصنع من كل هذه الأشياء البسيطة المتواضعة صورة متكاملة لرجل تمنّيت طوال ليالى العمر أن أسمع صوته . .

* * *

على أن حيرتى لم تنته عند هذا القرار ، بل لعلها بدأت . .فكيف أصنع — من هذه المعلومات البسيطة — كتابا ؟!

وكما علمنى أساتذتى ، لابد لى من منهج : فى البداية فكرت أن أجعل كتابى فى صورة قصة ، خصوصا أن جهاد فلسطين — وقد قدمنا فيه آلاف الشهداء قربانا — له فعلا كل سمات الملاحم الدرامية : ففيه النبل، والخداع ، والجبن ، والشجاعة ، تتزاوج فى سياقه المهزلة والمأساة!.. ولكن ما أشق كتابة الروايات عن النفس ، فقد أحسست وقتها أن البحث عن التركيب القصصى المتكامل قد يضع الجانب الموضوعى فى المؤخرة . يضاف إلى هذا أن للقصة أهلها ممن يعرفون أسرارها ، ويقدرون على تحمل تبعاتها . . ومن ثم وضعت هذا الاحتمال جانبا . .

ولا يفوتنى أن أذكر أن فكرة كتابة رواية عن فلسطين ، وماجرى حولها وفوقها وبسببها ، قد تلقيتها إيحاءً من الدكتور حسن صبرى الخولى . فقد جلست إليه يوماً ، فى حديث طويل حول الذكريات

التى تتعلق بأبى . . وتشعّب الحديث بنا حول فلسطين ، والرجال الذين عملوا فوقها ، والشهداء الذين عانقوا أرضها .

يومذاك قال الدكتور الخولى : « أليس من الأفضل أن يكون جهدك أكثر شمولا ، فيكون كتابك عن شهداء فلسطين بدلا من أن يكون عن أبيك ؟ . : لماذا الدائرة الضيقة ؟ هل هذا مظهر من مظاهر الأنانية؟.. »

وأعترف بأن عبارة الدكتور الخولى الأخيرة حرّكت فى داخلى شيئا ما ، وأخذ هذا الشيء يلاحقنى وأنا فى الطريق إلى البيت ، حتى إذا جلست إلى أوراقى ، ورفعت رأسى ، إذا البصر يقع على صورة زيتية ملونة معلقة إلى الحائط : صورة أبى . . صورة رأيتها كثيراً ، ولم يكن يربطنى بها شيء خاص قبل ذلك . . وأحسست بأننى أعود إلى الدخول فى هذه الدائرة الضيقة وأنا فى منتهى السعادة . . وقد يكون دافعى « الأنانية » حقًّا ، ولكنها أنانية الأبنة المشوقة إلى أن تعرف كل شيء عن مصدر وجودها .

وخطر لى أن أكتب من منطلق البنوّة ، كأننى أبعث برسالة شخصية مطوّلة إلى الشهيد أبى . . ولكنى خشيت سيطرة المشاعر الخاصة على ما أكتبه ، وهى مشاعر لا أعتقد أنها تهم الآخرين .

وكان قد استقر فوق مكتبى ، وفى حقائبى وجيوب ملابسى ، قصاصات صغيرة من الورق أودعتها كل ما صادفنى من معلومات . . فاستقر رأيى أخيراً — ولعله كان استقرار الغريق الذى تمنى طويلا

شاطئاً يرقد فوقه ولو كان جثة هامدة !ـ علىّ أن أضع هذه القصاصات كما هى ، بالصورة التى جمعتها بها . .

فلتحمل قصاصاتى المتناثرة كل ما لدىّ من معلومات عن أبى ورفاقه ، ولأحاول أن أجمع فى وقت واحد بين الموضوعية والذاتية . . فأسجل الوقائع بالصورة التى حدثت بها ، ولا أحرم نفسى من التعبير عن مشاعرى الخاصة إزاء بعض هذه الوقائع . . وأعتقد أن هذا ما لا بد أن يحدث ، فالكاتبة ابنة . . وموضوع كتابها هو الأب .

وأعتقد أن هذا الحل ـ الذى انتهيت إليه ـ يفيد إلى حد بعيد . . وأعتقد أنه يقدم فائدة مزدوجة ، فكل فصل من فصول هذا الكتاب يقدّم ـ على حدة ـ موضوعا مستقلا ، يلقى الضوء على زاوية محددة فى شخصية أبى ، من خلال ارتباطه بظروف معينة . . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن الكتاب فى مجموعه يكوّن قصة متكاملة مؤرّخا ـ بالإضافة إلى سيرة أبى الشهيد ـ لفترة من أهم فترات مصر وأكثرها ثراء بالأحداث .

وأيًّا كان الحل الذى توصلت إليه ، فهو بالتأكيد ثمرة معاناة امتدت أربعة أعوام أو تزيد ، قمت خلالها بجولات فى الأماكن التى تردد عليها أبى والتى عاش فيها ، كحى الفجالة والظاهر ، ومطار ألماظه ، ومطار الخانكة . .

ولم أكتف بأن أطوف ، وأحاول أن أتحسس كل مكان طرقته قدماه . . . لم أكتف بهذا ، بل إننى اتصلت بمعظم أصدقائه ورفاقه فى أماكن عملهم (بقيادة القوات الجوية – مطار القاهرة الدولى) ، وفى منازلهم ، وفى المستشفيات . . بل وفى السجون والمعتقلات أحياناً أخرى !

كذلك قمت ببحث مضن فى « أرشيف » دور الصحف – خاصة الأهرام – والمكتبات ، وإدارة شئون الضباط ، لأجمع الخيوط البسيطة التى استطعت الحصول عليها – وهى قليل من كثير – بعد أن أصابنى الإجهاد . . ولا أخفى عليك يا قارئى العزيز أن قسطاً كبيراً من المجهود ، بُذل فى ترتيب المواعيد ، ومحاولة اقتطاع بعض الوقت الذى أدين به لعائلتى وأولادى ، وقد ضحوا بنصيبهم من أجل أن أقدم هذا العمل وأن أسجل هذه الفترة من تاريخ مصر . . فخلال هذه السنوات استطعت أن أقابل الكثيرين ، ولكن لم أستطع أن أحصل من أكثرهم على ما أريد ! . . وكنت أكتب ما يقولون بنصه وحرفه ، وأكاد أن أقول : إن المجهود الحقيقى خلف هذا العمل ، هو مساعدة رفاق أبى فى السلاح ، وسعيى فى الحصول على المعلومات منهم . . فلم أكن أملك إلا أن أكتب هذه الأحاديث كما هى . .

وكم كنت أتمنى أن أحصل على كل ما أريد . . على مصادر أكثر ، لتستكمل صورة هذه الفترة من تاريخ مصر ، وتاريخ

الطيران ، وتاريخ هذا الرجل ... أبى : ولعل هذا الكتاب يفتح الباب لمزيد من الاجتهاد والكتابة .

* * *

يتبقى — فى ختام همستى الطويلة للقارئ المجهول ، الذى أتمنى أن تعانق عيناه بحنان كلماتى — كلمة : فقد جرت العادة أن يتساءل الكاتب عن مدى نجاحه فيما كتب ويتمنى رضاء القراء . . ولكنى أرفض هذا النوع من الأمانى رفضاً يقوم على أسباب أنثوية خالصة : فالأم لا تسأل — وهى تحمل وليدها فى بطنها — عن لون عينيه ، أو درجة ذكائه ، أو مستقبله وهو يسعى فى الأرض . . ولا يخطر ببالها أن تكون مسئولة عن ذلك . ولو تجمعت بعد مولده كل قوى الأرض تفتش عن عيوبه ، لظلت الأم تقول : « ما أنتم إلا حاقدون ! » . . فهذا منطق الأمومة ، لا يرى فى الأبناء إلا كل ما هو مشرق وجميل !

وهذا الكتاب ابنى ! . . يحمل الكثير من ملامحى ، وله كل ما فى تركيبى من فضائل ونقائص . . وليس لى — فى الواقع — من هدف وراءه سوى أن أزرع بدورى ، وعلى قدر استطاعتى ، زهرة فى حديقة الحياة !

الأصل .. « بتايوس » !

« رجع الزعيم أحمد عرابى من منفاه فى جزيرة سيلان . . . وذهب يزور صديقه الشيخ «إمبابى» . . . ولكنه فوجىء بأنه كان قد . . مات » !

قريتنا اسمها « بنايوس » . . قرية عادية ، صورة طبق الأصل من كل قرى مصر ، ليس فيها ما يميزها وليس فيها ما يشد الإنسان إليها، ما لم تكن له ارتباطات خاصة بها .

يشدنى إلى « بنايوس » ، قريتى ذات الوجوه والبيوت الشاحبة ، أننى أنتسب إليها بالأصل . . ففوق أرضها نبتت شجرة أسرتى المتواضعة الطيبة ، ذات يوم بعيد فى التاريخ . . يوم يتعذر أن تُحدّد له بداية . . ولو كان التحديد من قبيل الحدس والاحتمال .

« بنايوس » ، قرية من قرى محافظة الشرقية ، تبعد عن عاصمة المحافظة « الزقازيق » حوالى كيلومترين فقط من ناحية الشمال ... وهى توازى فى موقعها هذا قرية « هرية رزنة » ، وهى الأخرى قرية مغمورة تبعد بدورها عن الزقازيق كيلومترين من ناحية الشمال الشرقى . . وليس لها هى الأخرى ملامح تميزها أو شىء تُذكَر به ، وإن اكتسبت شهرتها من كونها مسقط رأس الثائر أحمد عرابى . . وموطن متحفه الصغير حاليًا .

فى « بنايوس » ، كما فى كل قرى مصر ، بعض البيوت « المستورة » ، كما يقول التعبير الريفى الشائع — بيوت تعيش فى بحبوحة من العيش . . ففيها بيت البندارى ، وبيت الحفناوى، وبيت بدر ، وبيت الشريف ، وبيت كفافى . .

هذه كلمات سريعة أقدم بها قريتى يدفعنى إليها محاولة

استكشاف المكان الذى ينتسب إليه تاريخ أبى . . حتى وهو بعد أمنية فى ضمير الغيب !

وقد حاولت أن أجد لنفسى نقطة بداية مأمونة فى كتابة ما توصلت إليه عن تاريخ هذه العائلة ، غير أن محاولاتى لم تتوغل إلى أبعد من النصف الأول من القرن التاسع عشر . . وبالتحديد إلى أحد جدودى ، وكان اسمه : الشيخ « إمبابى كفافى »

ويروى عن الشيخ « إمبابى » هذا ، أنه قد ظهر على مسرح الحياة العامة مع الأحداث التى صاحبت انتقال الحكم من الخديو سعيد إلى الخديو توفيق . . يومذاك ، كان جدى هذا فى الخمسين من عمره .

وقد أفزع الشيخ إمبابى الفارق الشديد بين سياسة « سعيد » وسياسة خليفته « توفيق » على ما يبدو . . إذ كان الأول يميل إلى المصريين ، وكان الثانى ينفر منهم . وبفضل سياسة سعيد ، تولى عدد كبير من المصريين بعض المناصب الهامة ، ولعل أشهرهم هو « أحمد عرابى » ، الذى انتقل بفضل سياسة « سعيد » من سلك الجنود إلى سلك الضباط .

وبعد وفاة الخديو « سعيد » ، حدث الصدام المشهور بين القوى الوطنية فى الجيش المصرى بقيادة « أحمد عرابى » ، وبين الخديو الجديد النافر من المصريين .

وقد حدث أن وقف جدّى إلى جوار ابن منطقته

« أحمد عرابى » ، مؤمنا تماما بأن الثورة العرابية ثورة دفاع عن الحق . . وعندما فشلت الثورة العرابية ، ونال جدّى جزاءه ضمن من تعرضوا للنقمة باعتباره واحداً من المتمردين ، فدخل السجن فى هذه السن المتأخرة مع الآلاف الذين قبض عليهم . . . وبعد أن أمضى مدة الجزاء هذه ، خرج ليلقى ربه بعد ثلاثة أعوام . .

ومن الأمور التى تذكرها قريتنا الصغيرة . أن الزعيم « عرابى » ذهب ، عندما عاد من منفاه من جزيرة سيلان ، ليزور صديقه الشيخ « إمبابى » ، ولكنه اكتشف أنه قد . . مات !

* * *

شغلنى هذا الجانب الوطنى من حياة الشيخ « إمبابى » عن أن أقول لكم شيئاً عن نشأته . . فقد قضى بعض سنوات عمره فى الدراسة بالأزهر الشريف ، وأهّلته هذه الدراسة كى يصبح « فقيها » لقرية بنايوس ، وشيخها ، ومفتى أمورها الدينية . وكانت أسرة الشيخ « إمبابى » حينذاك فى حالة طيبة من العيش ، يغلّف سيرتها الورع والتقوى .

وتحتفظ ذاكرة قرية « بنايوس » الصغيرة للشيخ « إمبابى » بحادثة طريفة . . فذات يوم ، وكان بعد صبيًّا ، وقف بين أطفال القرية لابسا عمامته الخضراء ، مرتديًا سرواله الأنيق ، وأخذ يخطب فيهم مهاجماً الظلم والطغيان . وعندما حضر والده وشاهده على هذه الحال ،

أخذه إلى المنزل ، وأقنعه بأن مثل هذا العمل لن يفيد كثيراً فى هذه الظروف ، وأن طريق القضاء على الظلم هو أن ينتشر العلم فى القرى أولا ، فيعرف كل فلاح ماله وما عليه . وأعتقد أن الشيخ « إمبابى » لم ينس هذا الدرس طوال حياته ، فقد حاول جاهداً تطبيقه بادئاً بنفسه وأسرته . . .

أجل، يبدو أن الشيخ المسنّ لم ينس هذه الحادثة أبداً ، إذ انعكس الدرس الذى خرج به منها ، فى إصراره الشديد على أن يدفع بأبنائه إلى طريق العلم . . حرصاً منه على تحريرهم من الفكر الأسطورى والخرافى ، وحرصاً منه على تعميق علاقاتهم بالمجتمع . . . من المجتمع الصغير ، مجتمع القرية البسيط الصغير ، حتى مجتمع الأم الكبيرة . . مصر .

ومن بين أبناء الشيخ « إمبابى » لمع ابن اسمه « رضا » . ويقال أنه تعلم الطب ، وأصبح أحد رواد الطب فى بلادى ، وأحد الذين كانوا استمراراً للطفرة العلمية التى بدأت فى عهد « محمد على » ، وممن أوفدهم إلى أوربا فى بعثات كان يرأس أولاها ويشرف على طلبتها « رفاعه الطهطاوى » ، المصرى الأصل ، وابن قرية طهطا الموجودة فى أقصى الصعيد... ولا ينال من هذا أن الغاية — فى البداية — كانت إرسالهم ليحققوا لمحمد على أحلامه فى دولة متطورة ، فالتاريخ الحديث يقول إنه — فى سنة ١٨٠٩ — اختار بعض النابهين من شباب مصر ، أوفدهم فى بعثات

إلى ايطاليا لدراسة العلوم العسكرية وهندسة السفن ، كما أرسل — فى نفس الوقت — بعثة مماثلة إلى إنجلترا لدراسة الطب . ويقال إن النسبة الغالبة من شباب مصر ذهبت إلى إيطاليا ، لكى يتفادى « محمد على » تأثير النفوذ السياسى للدولتين الكبريين وقتذاك (إنجلترا وفرنسا) ومن ثم اختار إيطاليا لأنها كانت فى ذلك الوقت دولة مسالمة ، لاحول لها ولا قوة ، وليست لها أطماع استعمارية . وقد شجع محمد على على هذا الاختيار صديق له من الإيطاليين المقربين ، كان اسمه الخواجه « روزيتى » . وعلى أية حال ، ومهما يكن الدافع الذى حرك محمد على ، فقد جنت مصر ثمار هذه الطفرة ، التى تمثلت فى تعلم أبناء الشعب . . ومنهم جدى الدكتور « رضا » ، الذى عاد ليمارس مهنة الطب فى مصر .

ولقد وقفت أكثر من مرة أمام إرتباط أبناء أسرتى بالأرض والقرية . . ولعل هذا نسيج الحياة المصرية كلها ، ميراث حضارى انتقل عبر الزمن من عهد الفراعنة . . أليس بناء الأهرامات والمعابد والقبور المسحورة مظهراً لارتباط الإنسان المصرى بالأرض ؟ ! . . أليس الوشم الذى يرسمه الفلاح فوق جسمه ، مسجلا اسمه واسم قريته ، مظهراً لارتباطه الدائم بالأرض ؟ ! . . أليس انتساب بعضنا بالأسماء إلى بلدته — كما فى أسماء « المنوفى » و « الدسوقى » و « الدمنهورى » ، و « الإسكندرانى » — مظهراً ثالثاً ؟ ! . . وهناك الكثير الذى يمكن أن يقال على سبيل التدليل ، فى هذا الصدد ، ولكن خلاصة القول هنا أن الارتباط بالأرض هو

نسيج الشخصية المصرية كلها . .

وقد استقر جدى « هنا » — بعد عودته — فى محافظته ، وبالتحديد فى الزقازيق . . قريباً من قريته ، حتى يكون على صلة دائمة بآلام ومشاكل الفلاحين الذين أحس بأهمية وجوده بينهم ، وبخاصة بعد أن رأى النهضة الأوربية ، والفارق الشاسع بين حالة الإنسان فى مصر ، وحالة الإنسان فى أوربا .

• • •

أنجب الدكتور « رضا كفافى » عدداً كبيراً من الأبناء ، يهمنى منهم هنا الدكتور « محمد بهجت » لأنه والد الشهيد أبى . . ولقد ورث عن أبيه مهنة الطب ، وبرز فيها حتى شغل منصب مدير مستشفى الحميات بالعباسية ، ثم رشح وزيراً فى عام ١٩٣٥ ، ولكن المنية وافته قبل أن يتسلم عمله الجديد .

ويبدو أن نزعة الوطنية التى تأصلت عند جده الشيخ « إمبابى » ، والتى ورثها أبوه الدكتور « رضا » قد انتقلت إليه وتجلت خلال فترة سيطرة السير مايلز لامبسون (اللورد كيلرن فيما بعد) على الأوضاع فى مصر ، إذ استدعى الدكتور بهجت ليشرف على علاج ذلك البريطانى فى عام ١٩٣٤ ، وأدرك أصدقاء « الدكتور » من زملائه الوطنيين أن هذه فرصة ذهبية للتخلص من المندوب السامى ، ففكروا فى قتله بدس السم له على يدى الطبيب الوطنى الذى تولى علاجه .

وبالرغم من ميول الرجل الوطنية الواضحة ، فقد رفض هذه الفكرة . . ذلك لأنه إذا كانت مصلحة القضية الوطنية تميل نحو التخلص من المندوب السامى البريطانى ، فإن تقاليد مهنة الطب توصى بإنقاذ حياته . . ومن ثم احتدم الصراع فى أعماق الدكتور بهجت ؛ حتى تغلب الجانب الإنسانى والعلمى فى الرجل أخيراً ، فرفض ! . . . كان دافعه إلى ذلك هو ضميره العلمى ، فقد أدرك بحاسته المصرية الأصيلة ، أن الغاية مهما عظمت لابد أن تلتمس وسيلة شريفة ، وأن الصراع يجب أن يكون مواجهة وليس غدراً . . بهذا المفهوم رفض الدكتور بهجت أن يدس السم للورد كيلرن ، وفضل أن يعالجه ثم يكون بعد ذلك الصراع ، وقد قدّر أصدقاؤه موقفه وقراره .

وقد يختلف الناس فى تفسير هذه الواقعة ، ولكن العقل النزيه لابد أن ينصف الطبيب المصرى ، ويشعر بأن تصرفه كان مظهراً نبيلا للروح المصرية الأصيلة . . ولعل هذا التفسير هو الذى دفعنى إلى اتخاذ هذا الحادث برهانا على وطنيته ، بالرغم من أن التفسير السطحى قد يميل إلى الناحية الأخرى !

ومرة أخرى ، أكاد أرى الطابع الريفى المصرى يحيط بهذه الحادثة . . . فالفلاح المصرى البسيط يرفض أن يقتل عدوه فى الظلام ، أو من الخلف . . بل إن نبل فطرته يذهب إلى أكثر من هذا ، فإذا جاءه عدوه ودق بابه ، نسى خصومته مؤقتاً ، وأرجأ تسوية الحساب إلى أن

يبتعد العدو عن داره . . وما أجمل هذه الصفات المتأصلة فى عمق الفلاح المصرى ! . . وهكذا كان جدى فى تصرفه مع عدو بلده (اللورد كيلرن) مثالا للفلاح المصرى الأصيل .

ومما يؤكد إحساس الرجل بوطنه ، أنه وهو الطبيب الناجح فى هذه الفترة الزمنية — التى كانت تبيح لمثله أن يكون مثرياً واسع والثراء يملك الضياع والعمارات الشاهقة — رفض استغلال علمه للحصول على مكاسب شخصية ، بل كرس حياته لخدمة أبناء شعبه من الفقراء ، فافتتح عيادة بشارع العباسية ، كانت إحدى العيادات الشهيرة فى تلك الأيام ، وكانت نسبة كبيرة من المترددين عليها يعالجون بالمجان .

ويهمنى أن أذكر ، وأنا أتكلم عن الدكتور « محمد بهجت كفافى » ، أن قدره قد حرمه من كثير من أبنائه . . كان أبناؤه يموتون فى الأعوام الأولى من العمر ، ولم ينجُ من مصيدة الموت هذه غير ولدين ، كان أحدهما أبى ! . ولكم كانت فرحة الأسرة بنجاتهما وحرصها على رعايتهما !

* * *

كان هدفى وأنا أكتب الكلمات السابقة ، أن ألقى الضوء على بعض علامات الطريق البارزة فى حياة هذه الأسرة . . أن أحدد المسار الذى مشى فوقه القدر حتى جاء بى إلى الحياة ، لكى أضع صورة أبى فوق خلفيتها الاجتماعية الصحيحة . . فهو فرع قصير العمر فى شجرة

ارتوت جذورها حتى الثمالة من ريف مصر . . ومن ثم تأصّل فى نفوس كل أبناء أسرتنا احترام عميق للريف ، وبكل ما يتصل به . . احترام أخذ عندهم جميعاً شكل الميراث ، ينتقل من الأب للابن .

ومع أن البعض يعد هذه الأمور من باب التفلسف ، فإننى لا أجد حرجا فى القول بأن قصة أبى تمثل — فى بعض جوانبها — جزءاً من ملحمة الصراع الدائم بين الإنسان المحدود القدرة وحرصه على تحمّل قدره والسير به محمولا فوق كتفيه . . إلى أن يضع القدر كلمة النهاية على هواه ؟

من « بنايوس » . . القرية البسيطة الشاحبة ، القابعة فى استكانة فى محافظة الشرقية ، كانت بداية وجودى .

وفى القاهرة ، ومن بعد هذه البداية ، حدثت أمور وأمور !

قصاصة رقم (٢)

الانجليز السكارى فى شوارع القاهرة

« كان قلب منيرة هانم فى قلق دائم على هذا الصغير . . . كانت تشعر بأنه لن يعيش طويلا . . وأن نهايته لن تكون عادية » !

اختار الدكتور بهجت لأسرته حى الفجالة بالقاهرة الذى كان من أكثر أحياء القاهرة حيوية واجتذابا للسكان ، فى تلك الآونة .

وفى منزله بالفجالة . ولد أبى فى ٢١ مارس١٩٢٢ ، بعد ثورة سنة ١٩١٩ بعامين . . ويقال إنه كان طفلا جميل الطلعة ، حسن المنظر ، يشابه فى صفاته الجسمية أبناء الغرب . وقد أحدث مولده تغييرات واضحة فى إيقاع الحياة اليومية لبيت الدكتور بهجت . وكانت فرحة أمه السيدة « منيرة هانم حفيظ » بقدومه أعظم من أن توصف، فظلت ليالى طويلة ساهرة ، تدعو الله أن يمد فى عمره ، ويجنبه مصير إخوته فلا يموت فى المهد صبيًّا .

ولقد روى أقاربى ممن عاشوا هذه الفترة أن قلب « منيرة هانم » كان فى قلق دائم على هذا الصغير ، إلى الدرجة التى كانت توحى إليها بأنه لن يعيش طويلا ، وأن نهايته لن تكون عادية ، وأنه لن يفترق طويلا عن إخوته ، وإن امتد به العمر إلى أبعد مما امتد بهم . . وأعترف بأن سير الأحداث بعد ذلك ، قد حقق توقعات « منيرة هانم» بالنسبة لابنها إلى حد كبير !

ولقد تعوّدت أسرة الدكتور « بهجت » أن تزور قريتنا المتواضعة « بنايوس » فى فترات متقاربة، فكان الابن الصغير « عدلى » يفرح بهذه الزيارات المتكررة . ولقد كان طفلا يحب أكل الحلوى — شأنه فى ذلك

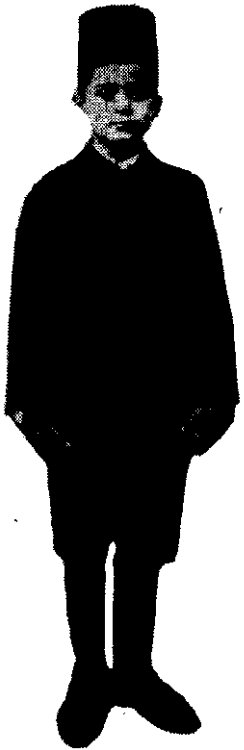

التلميذ محمد عدلى كفافى كان دائماً متأملا فيما حوله . . من القرية الأصل(بنايوس) ، إلى العاصمة الأم (القاهرة) . . إلى أصوات السكارى فى شوارع الفجالة .

شأن أطفال الدنيا كلهم – فاستغل والده هذا الحب كى يزيد من إذكاء حبه للريف. . كان يأخذه إلى حظيرة الدجاج ، ويقول له إن الدجاجات هى التى تلد له الحلوى . فكان الصغير يحصى فى حرص كل ما يصادفه من الدجاج ، لكى يقدّر كمية الحلوى التى تعود عليه . ولا شك أن زيارات أبى المتكررة فى طفولته للريف ، وما صاحبها من الذكريات الجميلة عن قريته ، قد عمقت فى وجدانه – ومنذ الطفولة – التعلق بالقرية ، وكوّنت فى نفسه ، منذ مراحل العمر المبكرة ، عادة تكرار الزيارة إلى هناك . . . وهى عادة لازمته طوال حياته القصيرة .

* * *

معذرة يا قارئى العزيز ، إذ أتوقف هنا قليلا ، لأقص عليك حادثة تروى عنه وهو صبى صغير . . فقد كان محبًّا للكتب والقراءة ، حتى إن القراءة جرّت عليه المتاعب يوماً ، إذ احتجزه أحد أصحاب المكتبات فى الفجالة ، لأنه كان يحمل جنيها كاملا – وكان للجنيه فى هذا الوقت قيمة كبيرة – فأثار وجوده مع الصبى ريبة الرجل ، وحمله على أن يذهب معه إلى المنزل ، ليتأكد من أن المبلغ كان له فعلا .

وكم كانت سعادة والد الطفل ، الدكتور بهجت بشغف نجله بالقراءة ، فدفع جنيها ثانيا للبائع ليشترى لعدلى كل المجموعة الموجودة فى المكتبة عن المعارك الحربية وقصص وسير وبطولة العظماء . . وكوّن أبى بذلك مكتبته الأولى ونواة شخصيته !

الدكتور محمد بهجت كفاحى الطبيب الوطنى ، وقصة التخلص من المندوب السامى لورد كيلرن ، والروح المصرية الأصيلة . .

ويقول أقاربه من المحيطين به فى هذه الفترة من حياته ، إنه كان إذا بدأ فى قراءة كتاب لم يتركه إلا وقد أتى عليه بأكمله . . وكثيراً ما كانت والدته تجده نائماً والكتاب بين يديه . . وقد لازمته عادة القراءة قبل النوم حتى استشهاده .

فى كل صيف اعتادت أسرة الدكتور « بهجت » أن تذهب للمصيف فى « رأس البر » . . وفى تلك الفترة كانت « رأس البر » شاطئ مصر الهادئ الذى يجمع بين ميزات الشواطئ والقرى فى آن واحد . وكان شغل « منيرة هانم » الشاغل وقتها ، أن تمنع ابنها « عدلى » من النزول إلى البحر . . ربما كان دافعها إلى ذلك الهاجس الذى كان مسيطرا عليها بأن هناك كارثة تنتظره على الطريق ، قد تتمثل فى صخرة مختفية خلف الأمواج . . ولكن الصغير كان يرفض فى عناد ملحوظ أوامر أمه ، فيهرب من وقت لآخر إلى البحر . وإذ ذاك كانت الأم القلقة تلزم الشاطئ وعيناها لا تفارقان الابن ، وقلبها لا يتوقف عن الدعاء له . .

* * *

تلقى أبى التعليم الابتدائى فى مدرسة الفجالة الابتدائية . وهو لم ينس — حتى آخر أيامه — مشهداً كان يتكرر كل يوم ، أثناء ذهابه أو عودته من المدرسة . فقد كانت شوارع حى الفجالة تمتلئ بالجنود الإنجليز وهم سكارى . . . يترنحون فى الطرقات ، أو ترتفع حناجرهم

بالغناء الصارخ ، أو يعتدون على المارة الآمنين . . . لم ينس تلميذ مدرسة الفجالة الابتدائية (محمد عدلى كفافى) هذا المشهد . فقريباً من حى الفجالة تقوم محطة السكة الحديدية ، وكانت تعج بآلاف الجنود الإنجليز فى تنقلاتهم من ثكنات قصر النيل إلى منطقة القناة ، كما كانوا ينتشرون فى منطقة العتبة وشارع كلوت بك . . وفى هذا الوسط لم تكن أذنا الصغير تلتقطان غير خليط من الأصوات الفرنسية والإنجليزية واليونانية . . كادت العربية أن تضيع وسط الزحام . وما إن شب عن الطوق ، حتى رأى أقرانه من أبناء الطبقة الأرستقراطية تكاد لغتهم العربية أن تتوارى وسط كثير من تعبيراتهم الغربية عنه والتى لم يكن — فى تلك الفترة — قد بدأ يستوعب محتواها بعد بعقله الصغير .

وإذا كان ذلك هو العالم الصغير الذى استقبل « محمد عدلى كفافى » كأول ما يستقبل الطفل ، فلقد كان هناك العالم الأم ، حيث الروح الوطنية العامة التى بلغت حد الغليان ، فى بلد حرم من الحياة الدستورية آنذاك ، كانت أطول يد فيه فى يد البوليس السياسى ، ويد المحاكم المختلطة التى كانت تحمى جلادى الشعب وأرباب اقتصادهم .

لم يكن ذلك فحسب ، بل ناهيك بعربات السلطة تقلب حى الفجالة فى كل ليلة ، بحثا عن المواطنين الشرفاء ، إذ كانت عين الطفل تقع عقب رحيل العربات — من خلف نوافذ منزل العائلة — على أقدس حرمات مصر وقد انتهكت . . فلا حكومة

وطنية ، ولا استقلال ، بل لا قانون يحمى أبناء مصر ولو شكلياً . . فلم يثبت عن دستور سنة ١٩٢٣ ، كما أكدت الأحداث فيما بعد ، إلا عدم جدواه . . تلك كانت بيئة المهد الأولى للشهيد، البيئة التى عانقتها عيناه وسمعه فى الطفولة .

ومع أن الحرب العالمية الأولى قد انتهت فإنها ظلت قريبة إلى ذاكرة عدلى من خلال أساطيرها وبطولاتها ، التى أخذت تطرق سمعه فى أحاديث أصدقاء العائلة وأحاديث المترددين على منزل الفجالة . . المزار الذى كان ينتمى بأهله إلى الطبقة الأرستقراطية شكلا ، لكنه — فى الواقع وفى حقيقة أمره — كان « دوّارا » من « الدواوير » التى تعرفها أغلب قرى مصر . فقد كان منزل الدكتور « بهجت » مقصد أهل القرية فى ذلك العهد . . تلك عادة لم تزل إلى الآن من عادات الشعب المصرى الصميم المتماسك ، لم يفتقدها منزل الدكتور « بهجت كفافى » الأب بالرغم من مركزه الاجتماعى كأحد الأعمدة الاجتماعية فى هذه الفترة ، وبالرغم من كونه مديراً لأكبر مستشفى بالقاهرة حينئذاك وصاحب العيادة الشهيرة فى شارع العباسية .

ثم انتقلت أسرة الدكتور « بهجت » من حى الفجالة إلى حى السكاكينى بالقاهرة ، ليستقر بها المقام فى المنزل رقم ٥ شارع الشيخ قمر . . يومها كان حى السكاكينى أيضاً هو حى « الخواجات » ، وكان من أكثر أحياء القاهرة هدوءا . . والتحق الابن عدلى بأقرب المدارس

اللورد كيلرن – حاكم مصر الفعلى خلال الحرب العالمية الثانية
« ٥ وكان عدو الشعب المصرى رقم ١

الثانوية إلى ذلك الحى، وهى مدرسة فؤاد الأول الثانوية ، وفى هذا الوقت – عام ١٩٣٢ – كانت مدرسة فؤاد الأول من المدارس الثانوية القليلة فى القاهرة ، فلم يكن عدد المدارس فيها حينذاك يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة ، وكانت معروفة بأنها بؤرة للوطنية والصراع ضد الاستعمار الإنجليزى والطغيان والفساد . إذ كان يقع على كاهل شباب المدارس الثانوية عبء المقاومة والتمرد والمشاغبة ضد سلطات ذلك الحين .

فى هذه الفترة من تاريخ المنطقة كانت الغارات تُشَنّ من حى الحسينية المجاور لحى العباسية ، على حى الظاهر الذى كان معظم سكانه من اليهود ، إذ كان اليهود يثيرون الوطنيين بسلوكهم المعهود ، كانوا يدبرون فى الخفاء اتصالاتهم باليهود فى فلسطين لإنشاء وطن جديد لهم . . وكان هذا كله قريبا جداً من معسكرات الإنجليز بالعباسية ، فكانت مشاعر الجماهير مرهفة للوطنية وللثورة .

وهكذا كانت مدرسة فؤاد الأول إجمالا كالمفجِّر ، تزوّد منطقة العباسية بالثورة ، وتعبر عن مشاعر الشعب . ولا يفوتنا أن نشير إلى أن جامعة عين شمس لم تكن قد أنشئت بعد . . فى هذا الجو الوطنى وجد الفتى مجالا طيباً لاستثمار مشاعره منذ نعومة أظافره ، المشاعر التى كانت تراوده عندما كان الأب يصر على الذهاب إلى قريته بين حين وآخر . . وفى هذا الجو كان الرد على أسئلة كثيرة بدأت مع صداقته للعديد من زملائه .

• • •

وفى هذه المرحلة تكشفت ميوله الثورية ، فأعطاه هذا شكل الطالب المشاغب ، الذى يتمرد على أساتذته وخصوصاً الأجانب منهم ، والذى يأخذ تمرده صورة الاستفسار الدائم عما يسمعه منهم . . وعن مدى صحة ما يسمعه .

وتتحول لقاءات المدرسة وندواتها إلى خلية كفاح ضد الاستعمار . وتمتد الندوات إلى منزله ، حيث تدور الأحاديث حول قضية الشعب المصرى وقضية الظلم . وولدت بشائر جيل التحرير مع اجتماعات الشهيد فى منزله وهى اجتماعات لم تنقطع بالرغم من حصول الطالب « عدلى كفافى » على « شهادة البكالوريا » .

فى مدرسة فؤاد الأول الثانوية . ووسط هذا الجو الوطنى ، توطدت الصداقة بالعديد من الزملاء وبينهم زميل اسمه « محمد عبد الرحمن كساب » كان فى نفس الوقت ابن ناظر المدرسة . . وتعود أنى أن يذهب إلى بيت « حضرة الناظر » ليستذكر الدروس مع ابنه . . وكان هذا البيت ولا يزال فى مواجهة مدرسة فؤاد الأول الثانوية (الحسينية الثانوية الآن) ، بشارع المستشفى الفرنساوى . . الذى تغير اسمه الآن ، فأصبح شارع مستشفى الطيران .

وتطورت العلاقة بين الطالبين لتصبح علاقة بين أسرتين . وذات يوم ، وبينما كانا يستذكران رأى عدلى ابنة ناظر مدرسته وشقيقة زميله ، وكانت تسمى فاطمة . ويقال إنها كانت طويلة بيضاء جميلة . . وكانت

إذ ذاك مخطوبة لابن عمها الصيدلى الخاص للملك فاروق ، وكان هذا منصبا مرموقاً فى ذلك الوقت .

تقول الصفحات القليلة التى نجت من الضياع من مذكرات أبى إنه قد أحب هذه الفتاة كل الحب . . وكان حبا من طرف واحد طبعا ، فتقاليد الأربعينات فى مصر لم تكن تسمح لفتاة أن تعبر عن مشاعرها ، أو أن تخوض تجربة غرام . . ولست أدرى بعد مضى كل هذه المدة ، وبعد كل ما حدث من تطورات ، ما إذا كانت تقاليدنا قد أصبحت تسمح بذلك ، أم ما زالت تسجن مشاعر الأنثى خلف قضبان من الذهب ملفوفة فى شعائر براقة . . .

المهم أن أبى تمنى أن يتزوج هذه الفتاة . وكان المفروض أن تكون هذه الأمنية مجرد حلم من أحلام الشباب . فالمحبوبة — كما قلت من قبل — مخطوبة منذ ولادتها إلى ابن عمها . . ولكن الظروف شاءت أن تنفصم عرى خطبة الآنسة « فاطمة عبد الرحمن كساب » إلى ابن عمها ، بعد سنوات قليلة ، لتكون فيما بعد من نصيب أبى !

حصل والدى وصديقه « محمد كساب » على شهادة « البكالوريا » فى عام ١٩٣٧ . . وكان لهذه الشهادة إذ ذاك قيمة كبيرة ، كانت تؤهل من يحملها لأن يكون « موظّفَ ميرى » يشار له بالبنان .

وعندما حصل أبى على « البكالوريا » ، اختلف مع والدته اختلافا كبيراً ؛

وكان والده قد توفى قبل هذا بسنوات قليلة ، فى عام ١٩٣٥ . . ذلك أنها كانت تريد إلحاقه بكلية الطب ، وهذا من وجهة نظرها أمر طبيعى . . كانت تريد أن تجعل من ابنها امتداداً لأجداده ، وارثاً لمهنتهم الجليلة ، فهى نفسها ابنة طبيب ، وهو أيضاً ابن طبيب ، وحفيد طبيب . ومن ثم فنى التحاقه بكلية الطب استمرار لارتباط الأسرة بهذه المهنة العظيمة . . وعلى الرغم من أن مهنة الطب فى هذه الأيام كانت حلما للشباب ، لا يضارعها فى بريقها غير مهنة المحاماة ، فإن الفتى العنيد رفض ، وأفصح عن رغبته فى الالتحاق بالكلية الحربية . . وتصاب الأم بالذعر إزاء إصرار ابنها على أن يلتحق بالكلية الحربية . . ها هوذا يريد أن يكون على اتصال مباشر بالخطر . . ها هو ذا على وشك أن يحقق كل هواجسها بصدد قصر عمره وقرب نهايته .

* * *

ولكن لتخفّ الأم ما شاء لها الخوف ، وليعصف بها القلق ، فليس ثمة ما يثنى الابن عن طلبه . . وإذا به يتقدم فعلا — هو وزميله محمد عبد الرحمن كساب — إلى المدرسة الحربية ، فلا يُقبلان ! . . يُستبعد «كساب» لوجود (حوَل فى إحدى عينيه) ، ويستبعد أبى لصغر سنه عن السن المقررة بعدة شهور . . ولأنه كان أثقل من الوزن المطلوب بخمسة كيلوجرامات .

ومن الطبيعى أن يمتلئ قلب جدتى بالفرح لهذه النتيجة . . والتحق

الاثنان بكلية التجارة . ولكنهما بيتا النية على إعادة الكرة مرة أخرى، فأقبل خالى يصلح من العيب الموجود فى عينيه ، وأخذ أبى يخفض من وزنه بينما كان الزمن يضيف إلى عمره الشهور القليلة المطلوبة! . . وفى هذه المرة قُبلا فى المدرسة الحربية ، وانتصرت إرادة الشباب على كل التقاليد والعقبات .

لقد وقفت طويلا أمام هذا الذى سردته عليكم ، فثمة ما يشغل البال . . ذلك أننى أعتقد أن أبى كان — بالنسبة لأوضاع أسرتنا — حالة استثنائية . . كان بالنسبة لها خروجا على المألوف ، بل إننى أعتقد أنه قد تمرد منذ مجيئه على نظريات الموت التى كانت تحكم أسرتنا ، وأفلت من انطباقها عليه فى سنوات الطفولة ! . . ثم هاهوذا يهرب من قبضة العرف السائد يومذاك فى طاعة الآباء ، وفى الخضوع لتقييم المجتمع لنوع العمل والدراسة ، فيرفض الالتحاق بكلية الطب . فهل كان أبى يبحث عن إثبات ذاته وتأكيد وجوده ، إذ رفض العرف السائد فى عائلته وقتها !! . . أم أنه كان ينتوى التخطيط لمستقبله بشكل آخر ، شكل يختلف على الأقل من وجهة نظره . . . ربما يكون الأمر كليهما معا . .

هذا ما سنحاول اكتشافه فيما بعد . .

ولا أستطيع وأنا أكتب هذه السطور ، غير أن أنظر إلى صغيرى « أبو بكر » ، الذى ما زال يخطو نحو الثالثة ، والذى يشبه أبى تماما ،

وأتساءل : « هل ورث هذا الحفيد الصاخب كل ما كان لأبي من عناد وإصرار وكبرياء ؟! » . .

ودائما أجدني أقول : « لمَ لا ؟ » . . مع احترامي لكل نظريات العلم « والبيولوجيا » التي ترفض مثل هذا النوع من التوريث . . .

صورة طريفة فى عام ١٩٣٢ للطالب محمد عدلى كفافى عندما كان بالسنة الأولى
بمدرسة فؤاد الأول الثانوية ويحيط به مجموعة من أقاربه وشقيقه

«الفكرة» التى قادت إلى «ثورة»

« ها هوذا يخطو خارج أسوار مدرسة الطيران
العالى بألماظة ، ويتوجه إلى حى العباسية . .
ليمارس فصلا آخر من هوايته المحببة المعتادة . . ! »

على مضض قبلت الأم اختيار الابن الالتحاق بالكلية الحربية ، واستسلمت وكأنها اكتشفت ألاّ سبيل إلى معاندة القدر.. ودخل أبى الكلية الحربية فى أكتوبر سنة ١٩٣٨ ، وزامله فى نفس « الدفعة » ابن ناظر المدرسة — وشقيق زوجته فيما بعد — « محمد عبد الرحمن كساب » .

ومن الجدير بالذكر ، أن « دفعة » ضباط فبراير سنة ١٩٣٨ ، التى تخرجت فى نفس العام الذى دخل فيه أبى الكلية الحربية ، ضمت بين أفرادها : الرئيس محمد أنور السادات ، والسيد حسين الشافعى ، والسيد حافظ إسماعيل ، والسيد يوسف السباعى .

ونظرة سريعة على الحياة فى الكلية الحربية (الملكية) إذ ذاك ، تؤكد أنها كانت تخضع تماماً ، وبصفة مباشرة ، للإنجليز . . كانت خاضعة تماماً للنظم الإدارية الإنجليزية ، وللعقلية الإنجليزية ، حتى سنة ١٩٣٦ . فى هذا الوقت ، كان الحاكم بأمره فى شؤون الكلية الحربية ، عميد إنجليزى اسمه « ثوربورن » . . وكان كبير المعلمين إنجليزياً أيضاً . . ويحفظ التاريخ لسعيد (باشا) أنه كان أول حاكم مصرى — من سلالة محمد على — شجع المصريين على دراسة العلوم العسكرية ، وحدّ نسبياً

من حجم الأتراك والشراكسة داخل الجيش المصرى ـ كذلك يسجل التاريخ ـ حقًا وإنصافاً ـ لشباب مصر الحرص على الإفادة من هذه الفرصة . ومن ثم لمع فى تاريخ العسكرية المصرية مجموعة من الأسماء ، من بينها : الزعيم أحمد عرابى ، وصديقاه على فهمى ، وعبد العال حلمى ، والفارس الشاعر محمود سامى البارودى . ومنذ هذه الفرصة التى أتاحها سعيد باشا للمصريين ، أقبل شباب مصر على الالتحاق بالمدارس العسكرية ، كأنهم يمارسون نوعاً من التحدّى غير المنظم ، للسيطرة على القوة المصرية ممثلة فى جيشها . ثم كان دخول بعض الشباب ممن ينحدرون من أسر مصرية متواضعة ـ أبرزهم : عبد الناصر والسادات ـ علامة مؤكدة على نجاح الشباب المصرى فى تحقيق هدفهم وتصير الكلية الحربية . ومن ذاك الوقت ، لم يتوقف طموح الإنسان المصرى نحو استبدال أنظمة مصرية بكل ما هو إنجليزى فى حياتنا ». وطبيعى أن يكون للمجال العسكرى نصيب . . وطبيعى أيضاً أن يكون للمدرسة الحربية ـ باعتبارها مركز تكوين الضباط ـ نصيب . لذلك لم يكن غريباً أن يصل بعض المصريين إلى المناصب الكبيرة فى الكلية الحربية : وفى مقدمة هذا الرعيل من الضباط المصريين : أقدم المعلمين العسكريين « القائمقام » محمد متولى . وهو والد الفريق « سعد متولى » واللواء « محسن متولى » .

* * *

نعود ـ بعدهذه النظرة السريعةعلى أحوال الحياة فى الكلية الحربية ـ

إلى الكلام عن « الدفعة » التى كانت تضم أبى . والتى التحقت فى سنة ١٩٣٨ بعد « الدفعة » التى تخرّج فيها الرئيس السادات . لقد جلست طويلا إلى اللواء عمر (باشا) طنطاوى — كبير المعلمين وأركان حرب الكلية وقتذاك . . يروى لى عن هذه الفترة ، وهو يبذل كل الجهد لتذكر ما حدث ، فقد مضى عليه خمسة وثلاثون عاماً . . .

قال : إن دفعة ١٩٣٨ كانت تضم حوالى ٢٠٠ طالب ، وأن الطلبة كانوا إذ ذاك يدرسون علوماً عسكرية مبسطة للغاية ، بالإضافة إلى اللغة العربية ، واللغة الإنجليزية ، والهندسة . وكان مدير الكلية حينذاك مصرياً ، هو الأميرالاى « محمد فتوح » . وبعد سنة ١٩٣٦ ، ظهر تحوّل واضح فى تاريخ الكلية الحربية . فبعد معاهدة التقارب المشهورة بين مصر وإنجلترا — فى سنة ١٩٣٦ — اتجهت النوايا إلى تعريب الكلية الحربية فعلا ، وإلى إتاحة الفرصة للجهاز المصرى لإدارة شؤونها . لكن هذا لم يمنع الإنجليز من أن يتركوا داخل المدرسة « مسمار جحا » ، الذى تمثل فى لجنة إشراف داخلية ، تجعل للإنجليز حق الإشراف الفعلى على الكلية .

وحدثنى اللواء عمر طنطاوى عن نظام الالتحاق فقال : إن الكلية الحربية كانت ترسل — بصفة رسمية — إلى المدارس الثانوية تستفسر عن أخلاق وسلوك ودرجات الطالب المتقدّم إليها . كما كانت فى نفس الوقت — تستفسر من المديرية التى يقيم الطالب فى رحابها عن ظروفه

وأحواله العائلية . وكانت هذه الإجراءات ضرورية وتطبق على الجميع ، مع وجود بعض الاستثناءات والأولويات لأبناء الضباط ، بشرط اجتيازهم الكشف الطبي .

وفى أول نوفمبر ١٩٣٩ ، وفى الكلية الحربية — التى يشغل مكانها الآن الكلية الفنية العسكرية بكوبرى القبة — تخرج أبى بدرجة ملازم بالجيش المصرى ، وألحق بالكتيبة الرابعة بنادق مشاة فى « منقباد » . . المعسكرات القريبة من مدينة أسيوط .

وهناك التقى بابن مدرسة فؤاد الأول « الملازم ثان محمد أنور السادات » وبمجموعة من الضباط الشبان صغار السن ، لم تكن رتبة أحدهم تزيد على « ملازم ثان » . واسمحوا لى أن أنقل لكم بعض خواطر الرئيس المؤمن محمد أنور السادات . ففى أوراقه الخاصة كتب « أنور السادات » الكثير من اليوميات ، سجل فيها ذكريات الأيام الأولى فى لقاءات الثوّار ، بعد تخرجهم فى الكلية الحربية وتوزيعهم على وحدات الجيش ، وهى ذكريات تلقى الضوء على ميلاد الفكر الثورى للضباط الأحرار ، وكيف تولد هذا الفكر ابناً شرعياً للحركات الشعبية الوطنية منذ ثورة ١٩١٩ ، ثم كيف تحوّل هذا الفكر إلى واقع حىّ مع منتصف ليلة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، يقول الرئيس السادات * :

---

* كتاب « أنور السادات — قصة إيمان بالعسكرية المصرية »
للأستاذ حمدى لطفى صفحة ٧٧٠

الرئيس محمد أنور السادات – صاحب قرار العبور ،
وأصل فكرة الثورة والضباط الأحرار .

« نشأت الثورة نشأة طبيعية ، ونما التمهيد لها نمواً طبيعياً ، لأنها كانت فى مراحلها تفاعلا طبيعياً قوياً مع ضمير جيش مصر وضمير شعبها الثائر . ولنرجع إلى الوراء ، إلى الوراء ، إلى عام ١٩٣٨ ، ولنذهب إلى منقباد . :

« فى هذه البيئة المصرية الخالصة ، حيث يشعر المصرى بعناصره العريقة تملأ كيانه وتسيطر عليه ، وفى الشتاء حين يقسو الجو ، وتتمرد العواصف ، تزداد الروابط بين الأصدقاء يقاومون بها قسوة الطبيعة ، وينتصرون بها على عواء الرياح .. هناك حول نار صغيرة فى معسكر المناورات ، فى « تباب الشريف » ، كنا نقضى طرفاً من كل ليلة ، أصدقاء كلهم صغار السن ، صغار المناصب ، كبار الآلام وافرو الشباب ، ضباط لم تزد رتبة أحدنا عن « الملازم ثان» ، نخترق طول النهار الجبل . كان اختراق الجبل مرآة تعكس نار القلوب . وفى جو الصداقة والزمالة والألفة ، كنا نجلس فنمرح ، لنذيب فى هذا المرح شقاء النفس : : »

ويستمر القائد البطل « محمد أنور السادات » فى حديثه قائلا :

« وشهدت « تباب الشريف » والنار الموقدة عليها ، عهداً

طالب الكلية الحربية محمد عدلى كفافى بالملابس
العسكرية عام ١٩٣٨ . . كان الطيران دائماً هو أمله

مقدّساً ربط بين هذه المجموعة من الشباب الصغير . . لم يربطهم بعمل معين ، ولا بزمن محدّد ، ولكنه ربطهم بفكرة الحياة . . وأخذنا نجمع حولنا أنصاراً لفكرة الحياة ، كلّ منا يختبر عدداً من الضباط الآخرين ، ويكوّن فى محيطه خلية صغيرة يثير فيها

هذه الفكرة ، ويرى مدى استعدادها للعمل يوم يأتى وقت العمل :

« وبدأنا نخطو الخطوة الأولى ، فنحسب لها حساباً ، ونلقى الكلمة فنفكر قبل إلقائها مرتين . .

« مرت أيام قليلة كنا فيها لانزال فى فترة تكويننا الأولى . . وإذا بالشىء الذى نسيناه جميعاً يقع ، وكنا خليقين بتوقعه . فإن ضابط الجيش لا يستقر فى مكان واحد طويلا . وإن هى إلا لحظة مفاجئة حتى كنا تفرقنا شعاعاً . . واحد فى الإسكندرية ، والثانى فى طنطا . والثالث فى القاهرة ، والرابع فى مرسى مطروح . . »

« وكانت الحرب إذ ذاك قد بدأت ، والأعصاب توترت : ورأينا حلمنا الكبير يذوب ويتساقط ، كما تتساقط حبات الندى عالقة بزهرة تذوب فى شعاع الصباح . . وافترقنا . . »

وسط هذا الجو الحار المشحون بالوطنية ، ترك الملازم « محمد عدلى كفافى » هذه المجموعة من الشبان الضباط ، ضمن من تفرّقوا من أفرادها ، ولما يكن قد مضى وقت يُذكر على خدمته بالكتيبة الرابعة بنادق مشاة .

* * *

فى تلك الآونة قرر أبى أن يلتحق بمدرسة الطيران العالى . . وكان

طلبة الطيران يُختارون إذ ذاك من ضباط الجيش . . ولست أدرى بالتحديد ما هى الأسباب التى جعلت أبى يربط نفسه بالطيران ، ويخرج عن المألوف فى الأسرة : هل هى أحلام الشباب فى التحليق فى السماء ، بكل ما يضفيه هذا العمل من إحساس عميق بالفردية وتأكيد الذات ؟.. أو هى خطة نشأت فى « تباب الشريف » : فى منقباد وحول النار ، لتعبئة أكبر عدد من الضباط الشبان فى هذا التيار الوطنى . . عن طريق اختيار مكان أفضل فى التشيكلات العسكرية ، إستناداً إلى أن الطيران كان فى هذه الفترة أحدث أسلحة القتال ، ومن ثم فهو سلاح المستقبل؟ أو هو السعى نحو المخاطر ومعانقة المغامرة والتضحية ؟ . . وقد أكدت اللحظات الأخيرة فى حياة أبى عشقه لمثل هذه الأمور . .

لست أدرى على وجه التحديد ! ! . . فقد يكون الأمر أحد هذه الأسباب وقد يكون كلها مجتمعة . .

وجدير بالذكر أن أنباء تعلم الطيران كانت تشغل الأذهان فى ذلك الوقت ، وتشدّ انتباه الشباب بصفة خاصة . . إذ كان صدى مغامرة « هيوارد هيوز » — التى طار فيها حول العالم فى ثلاثة أيام و ١٩ ساعة — تطنّ فى الآذان . . وهى المحاولة الكبرى الثانية فى تاريخ الطيران ، وقد سبقها بإحدى عشرة سنة محاولة « لندبرج » المشهورة لاجتياز المحيط الأطلنطى . . ولا شك أن أبى قد استهوته هذه المغامرات ، ومن المحتمل أنه أراد أن يصبح واحداً من أبطالها . .

أمضى أبى فترة تعلم الطيران بالمدرسة ، مبتدئاً بالطيران المزدوج على

الشهيد طيار ثان محمد عدلى كفافى : كان دائم العمل ، كان جاداً ، مرحاً ، مسئولا . . هكذا يقول أساتذته ، أحب وطنه وأحب طائرته واستشهد فيها .

الطائرة الصغيرة ذات المحرك الواحد « المايلز ماچستر » ، ثم الطيران المنفرد عليها ، ثم انتقل للطيران بعد ذلك على الطائرة « آفرو ٦٢٦ » . ثم على الطائرة « أوراكس » . . . —

* * *

مرة أخرى ، أستسمحكم فى وقفة نرجع فيها لمذكرات الرئيس «أنور السادات» فى هذه الفترة (١٩٣٩ — ١٩٤١) ، خلال الحرب العالمية الثانية . فهو يقول :

« افترقنا . . ولكن الحلم لم يذُبْ ، والفُرْقة لم تستطع أن تكون حاجزاً بين هذه المجموعة ، فى أقسى الظروف التى حلت بها .

وفهمنا مع مرور الأيام هذا الدرس : وهو أن الصداقة القوية عند ما تقوم على نقاء وطهر ، وعندما تتركز أيضاً حول فكرة ، فإنها قادرة على الحياة مهما فرّقت الحياة بين الأصدقاء ، بل هى — أكثر من ذلك — تستطيع وحدها صنع المعجزات .

« والذى وقع بعد تلك الأيام ، هو الأثر القوى لهذه الصداقة النقية التى ربطتنا . . فقد فرّقت بيننا الظروف كثيراً ، وجمعت بيننا بعد ذلك كثيراً .

« وكنا إذ نفترق لا تفارقنا الفكرة ولا عهد الجماعة ، وكل

ما هناك أن أحدنا كان يجد الفرصة للعمل ، فيعمل .. يعمل مستقلا بإرادته فى ظاهر الأمر ، ولكنه فى حقيقته يكون مقيداً بإرادة الجماعة المتمثلة فى فكرتها الكبيرة وعهدها المقدس .

« ولكن الذى كان يبقى فى ميدان العمل ، كان يعمل .. يعمل بإرادته ، ولكن باسم هذه المجموعة وفكرتها الأصيلة ، ويعمل بإرادته ، ولكنه يرجع إلى من يستطيع الرجوع إليه من جماعتنا .. فى كل فرصة تواتيه لذلك :

« ولكن لم تعد الأيام تمر هينة ولا رفيقة ، فقد بدأت أحداث كثيرة تقع .

« بدأت بالحادث الأول عام ١٩٤٠ ، وكان ميدانه ميدان القتال فى مرسى مطروح ..

« كنا قد نقلنا جميعاً من منقباد ، وتفرقت جماعتنا بين وحدات الجيش فى مختلف أنحاء البلاد .. وبين السودان العزيز .

« ولم نكن نعرف على وجه التحديد ماذا سوف نعمل ؟ .. لقد كان هدفنا أن نقوم بدورنا فى تخليص البلاد من جنود الإنجليز . ولم تكن الفرصة لذلك تسنح أثناء الحرب وقد سيطر الإنجليز على كل مرفق من مرافقنا ، واحتلوا جميع قواعدنا وطرق مواصلاتنا .. بل لقد كنا نحارب إلى جانبهم أيضاً .

« وسنحت أول فرصة لنا فى مرسى مطروح ، ولكنها كانت فرصة

مفاجئة ، لم نستطع أن نحقق منها هدفاً كبيراً . . واستطاعت هى أن تكشف للإنجليز عن وجود اتجاه عملى ضدهم فى جيش مصر .

« كانت نيران الحرب قد اقتربت كثيراً من أرضنا العزيزة ، فقد بدأت جيوش إيطاليا تغزو منطقة مرسى مطروح . . وكان الدفاع عن هذه المنطقة منقسما بين ثلاثة قطاعات : قطاعين بريين يحتلهما الجيش المصرى ، وقطاع بحرى يدافع عنه الإنجليز . .

« كنا نحارب . . رغم أن مصر لم تكن قد أعلنت الحرب . وكانت سياط العذاب التى تلفحنا نحن الجنود والضباط ، تتلاحق علينا مع الليل والنهار ومع الأحداث المتعاقبة التى تمر بها البلاد . .

« كان موقف الحكومة من هذه الحرب موقفاً مائعاً . . ولم يكن من السهل تحديده فى صورة مفهومة واضحة . وكان من المؤكد أن هذا الموقف إن تحدّد ، فلن تكون مصر هى التى تحدّده على التأكيد .

« كانت سياسة مصر التى أعلنها رئيس حكومتها عند إعلان الحرب هى سياسة : « تجنيب مصر ويلات الحرب » . ولم تكن الحكومة تستطيع أن ترسم لنفسها سياسة أوضح من هذه ، أو أكثر حسما وتحديداً . . فقد كانت هناك المعاهدة . . وكانت قوات الاحتلال تملأ بلادنا ، وطائراتهم تجثم على صدور مطاراتنا وتنطلق منها إلى الميادين القريبة الحافلة بالموت : . ودباباتهم تختال فى شوارعنا ومن فوقها جنود حمر الوجوه . . ومخازن ذخيرتهم ترصّع أرجاء الوادى «بالبارود والقنابل وأسلحة

الدمار . . وكانت أرضنا — فوق ذلك — حقلا كبيراً يشرب حبات العرق من جباه آبائنا وإخوتنا لتخرجها قمحاً للغاصبين .

« وكان موقفنا نحن ضباط الجيش وجنوده ، هو الموقف الضنك . . فسياسة « تجنيب مصر ويلات الحرب » لم يكن معناها أننا لن نحارب فعلا . . وكان الذى يشقينا هو أن نسأل أنفسنا : نحارب من أجل من ؟ . .

. . . . . .

« فهل كانت سياسة « تجنيب مصر ويلات الحرب » تحمل هذا المعنى واضحاً وترسم خطته كاملة إلى نهايتها ؟ . .

« لقد كانت تشير إلى شىء أو ترنو إلى أمل . . وهذا الشىء وهذا الأمل هو الذى فهمته مصر منها .. وفهمه الإنجليز أيضاً : فهمته مصر ، فحاولت أن تستبشر به . . وفهمه الإنجليز ، فأبرق رئيس وزرائهم « تشمبرلين » إلى سفير إنجلترا « كيلرن » ببرقية قصيرة حاسمة : « يجب أن تستقيل حكومة على ماهر ؟ ! . .

« وكانت هذه البرقية كأنها القضاء الذى لا يُرد . . فاستقالت فعلا حكومة على ماهر ، لأنها أشارت بسياستها إلى شىء ، ورنت إلى أمل . . وفهم الإنجليز الشىء والأمل ! .

« لم يكن أمر مصر إذن فى يدها ، بل كان فى أيدى الإنجليز . . وكنا ننظر إلى المستقبل على هذا الوجه ، فلا

يلبث أن يرتد إلى الماضى : إلى الحرب العالمية الأولى التى سيقت فيها مواكب آبائنا مسخرين إلى ميادين القتال ، يحفرون الخنادق ليموتوا فى أحشائها ، ويحملون الروث ليُدفنوا تحت أكوامه ، ويلعقون العرق ليوفروا كئوس الشراب للإنجليز .

« ويجلب الماضى صورا مؤلمة ، ولا يشير إلى بارقة أمل فى مستقبل البلاد تحت هذه الأوضاع : يجلب صورة الثورة المجيدة التى أشعلها الشعب عام ١٩١٩ ، فأطفأها زعماؤه يوم وصلوا إلى الحكم وأصبحوا أحزاباً . . مطايا للإنجليز . . ويجلب صورة الثورة المجيدة التى أشعلها الشباب عام ١٩٣٥ ، ليجمع الأحزاب فى حزب واحد لمصر ، فاجتمعت الأحزاب فى حزب واحد ليوقع معاهدة الصداقة والتحالف مع الإنجليز .

« وما تغير الزعماء ! . .

« ولا خرج الإنجليز ! . .

« ولكن قامت الحرب . . وبدأت بوادر شقاء جديد : ماض كله حسرات ، ومستقبل كله مخاوف ، وحرب قائمة لا بد أن نصلاها حتى فى ظل « سياسة تجنيب مصر ويلات الحرب » :

« وفجأة ، علمنا أن أوامر من قيادتنا ستصدر لنا . . بالانسحاب من القطاعين البريين لتحتلهما قوات بريطانية حتى تنفرد بريطانيا بالدفاع عن المنطقة كلها .

. . . . . .

« وإلى هنا كانت الأوامر بسيطة يمكن قبولها ، ولكن الشق الأخير فيها كان يقضى بأن نترك سلاحنا ونسلمه للقوات البريطانية التى ستحتل القطاعين ! . . وهاج الضباط وماجوا ، وتحرّج الأمر جداً ، وصممنا على ألاّ نترك سلاحنا ولو اقتضى ذلك أن نموت عن آخرنا .

« وكنت أجد فى هذا الإجراء فرصة مناسبة ، لنجعل من « فكرة الحياة » حقيقة مجسمة ، يشارك فى حمل أعبائها الجيش كله ، والشعب كله أيضاً . . وكنت أعتقد أن أى احتكاك منا بالإنجليز سيقفز بفكرة الحياة مائة عام إلى الأمام .

« كانت قوتنا هناك قوة مختلطة ، تسمى « القوة الحقيقية » ، وكانت تتكون من خلاصة الجيش المصرى تضم زهرة سلاح المدفعية وبقية الأسلحة الأخرى . فوضعنا خطتنا على أساس أن تعود هذه القوات فتحتل — وهى فى طريقها إلى القاهرة — كل المرافق العامة ، ثم تفرض حكومة على ماهر مرة أخرى بعد استقالته المعروفة المدوية .

« كنا إذ ذاك فى شهر سبتمبر ، وكان على ماهر قد استقال فى شهر يوليو ، وكان الشعور القومى ضد الإنجليز قد بلغ أقصى مداه فى البلاد .

« وصدرت الأوامر لنا فعلا بالانسحاب ، وبترك أسلحتنا . . فرفضنا ترك السلاح ، وتقدمنا إلى القاهرة . ولأكثر من سبب تبين لنا أن تنفيذهذه الخطة ، سيكون وبالا علينا . فقد أدركنا على أساس تقدير الموقف ، أننا لن نستطيع أن ننجح فيها إلى نهايتها . . فاكتفينا بالعودة بأسلحتنا كاملة . . واعتبرنا هذا نصراً كافياً لنا فى مرحلة جهادنا الأولى .

« وعلى الرغم من كل الأحاديث التى دارت بشأن هذه الخطة والتمهيدات التى كنا قد بدأنا نقوم فعلا بها ، فإن الإنجليز لم يكتشفوا منها أى شىء . . ولكنهم فى الوقت نفسه أدركوا سيطرة روح العداء لهم على ضباط الجيش الصغار . . وأيقنوا أن هذه الروح قد تلعب دوراً أخطر من ذلك الدور فى يوم قريب . وبدأنا نحن نكون هدفاً لعيون الإنجليز حيثما كنا . . فى القاهرة ، أوفى أى سلاح من أسلحة الجيش ننقل إليه .

« والكسب الأكبر الذى كسبناه من هذه الحادثة ، هو عودتنا إلى القاهرة ، فقد جمعتنى القاهرة فوراً بجميع أصدقاء منقباد . . وفى القاهرة ، بدأت اجتماعاتنا تتوالى وتتركز . . وأخذنا نفكر فى شىء نقوم به على أساس من الدراسة الكاملة ، وبحيث يكون توقيته الكامل فى أيدينا نحن لا فى أيدى الظروف وحدها .

« وكان فى خيالنا رجلان . . نريد أن نتصل بهما ، وأن نشركهما معنا فى عملنا الكبير :

« على ماهر ، صاحب البيان المشهور والاستقالة المدوية . . وعزيز المصرى ، رئيس هيئة أركان حرب الجيش ، وهو الذى وقع اختيارنا عليه عندئذ لكى يقود ثورتنا ، وحاولنا أن نتصل بعلى ماهر فلم نستطع ، وحاولنا أن نتصل بعزيز المصرى فاستطعنا . . »

* * *

المهم : فى أول نوفمبر ١٩٤٠ تخرج أبى فى مدرسة الطيران العالى ، برتبة ملازم ثان طيار . ومنذ هذا التاريخ ارتبط أبى بالسلاح الجوى ، حتى أدرج اسمه فى قائمة شهدائه .

تقول الأوراق الرسمية العسكرية للطيار « محمد عدلى كفافى » : إنه رُقى إلى درجة « ملازم أول طيار » فى يناير ١٩٤٤ . . ثم إلى « قائد سرب » فى أول يناير سنة ١٩٤٧ .

وبعد أقل من عام ، رُقى استثنائياً إلى « قائد أسراب » فى نوفمبر سنة ١٩٤٨ ، نتيجة لنجاحه فى العمليات والمهام التى كلف بها فى فلسطين . وربما كانت هذه الترقية آخر ما تلقاه أبى من تقديرات فى دنيا الأحياء . . فبعد مرور خمسة أيام تماماً ، استشهد فى نوفمبر سنة ١٩٤٨ ، ولم يكن إذ ذاك قد بلغ السابعة والعشرين من عمره .

وأعترف أننى لم أنجح كثيراً فى التخلص من رغبتى فى معرفة السبب

الذى جعله يغير من مسار حياته رغم كل ما ذكرته . . فى ذلك الحين ، لم يكن حجم العمل فى سلاح الطيران كبيراً ، بل كانت طائرات السلاح مقصورة على طائرات النقل والاستكشاف والمواصلات ، والمقاتلات ، والقاذفات الخفيفة . . على أن العمل فى الطيران يحتوى بالتأكيد على مخاطرة ترتبط عامة بكل ما هو وافد وجديد دون أن تكون له تقاليد راسخة فى حياتنا . . وإن كنت أتصور أحياناً أن ما حدث صورة أخرى لممارسة أبى لمظهر من مظاهر العناد ! . . كأنه كان يخالف هذه المرة كل رفاق « دفعته » . كأنما كان يختار هذه المرة التميز والتفرّد ! . . أليس فى هذا الاختيار ما يذكر بخلافه مع والدته وهو يرفض الالتحاق بكلية الطب ، معارضاً بذلك تقاليد الأسرة ؟ . . أليس فى ذلك شبه بتعلقه بغرام فتاة كان يعلم سلفا أنها مخطوبة لسواه ، خارجا بذلك عن تقاليد جيله ؟ ! .

أعتقد أن كل هذه مواقف تربط بينها صفة واحدة ثابتة ، هى : التفكير ، ثم التنفيذ بإصرار . . وإن اختلف المظهر الخارجى لها ، وأسلوب التعبير عنها .

ليكن الأمر ما يكون . . فها هو ذا حضرة الطيار ثان « محمد عدلى أفندى كفافى » يخطو خارج أسوار مدرسة الطيران العالى ، ويتوجه إلى حى العباسية ، ليمارس فصلا آخر من فصول العناد !

فقد عاش لفترة بعيداً عن رفاقه الشبان ، فعاد ليشاركهم فى تنظيم أنفسهم . وبذلك تجددت لقاءات الشبان الضباط ، امتداداً للقائهم حول النار فى « تباب الشريف » بمنقباد .

« قصاصة رقم ٤ »

« نجيّة هانم » تقول : لا !

« اكتشفت أمي أن أبي كان يتركها ويعود إلى البيت ، ليسهر فيه حتى ساعة متأخرة . وأن كل الظواهر كانت تدل على أن هناك من يشاركه سهراته ! »

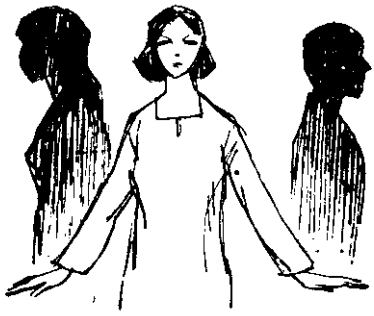

الفتاة « فاطمة عبد الرحمن كساب » هى موضوعى الآن ، وهى أيضاً موضوع جديد فى حياة الطيار « محمد أفندى عدلى كفافى » . .

كانت — كما رأيتها وعشت معها بعد ذلك — طويلة ، جميلة . . وللأسف فقد أخطأتنى قوانين الوراثة ، وكأننى لفرط إعجابى بها ، أتصور أحياناً أننى لم أرث منها شيئاً .

وكانت « فاطمة كساب » — كما قلت من قبل — مخطوبة لابن عمها ، الصيدلى الخاص للملك فاروق . وكانت — وهذا هو الأهم فى موضوعنا — بطلة قصة حب لزميل شقيقها . ولقد شاءت الظروف — ولأسباب خاصة بعائلة « كساب » — أن تنفصل عن خطيبها . . وشعر أبى بأن الظروف تخدمه ، وأن الطريق ممهد أمامه كى يتقدم فيطلب يدها . ومن ثم عاد من جديد يتردد على عائلة زميله الضابط « محمد كساب » . وفى تلك الأثناء ، كان رب الأسرة قد رقى وأصبح مديراً للتعليم فى مديرية قنا .

وجاء اليوم الذى فاتح فيه الضابط الشاب أسرة الفتاة فى أمر خطبته لها . وكانت كل الدلائل تشير — من وجهة نظره — إلى قبول طلبه . . فهو من أسرة طيبة ، ويشغل منصباً محترماً ، ومعروف لكل أهل المنزل ! . ولكن ما حدث كان على عكس ما توقع ، فها هى ذى أم الفتاة « نجية هانم حميد » ، التى يجرى فى عروقها دماء تركية ، تقول : « لا » ! .

ولقد بنت جدتى العزيزة أسباب رفضها على سبب غريب وتعسفى ، هو أن العريس طيار ، فهو دائماً أقرب إلى الموت منه إلى الحياة . . ومن ثم فلماذا تقامر بمستقبل ابنتها ، فتربطها برجل يعمل فى مهنة « تقصف العمر » ؟ ! . . ١

ولقد تأملت طويلا هذا الرأى لجدتى العزيزة ، فوجدتنى أربط بينه وبين ما سبق أن قالته جدتى لأبى ، حين أراد الالتحاق بالكلية الحربية . . كانت هى الأخرى ترى أن فى الارتباط بالجيش مغامرة قد تؤدى إلى الموت . فكأن قلب كل منهما كان يشعر بما كان مقدراً أن يحدث فيما بعد . . قد يكون هذا صحيحاً ، ولكن الشىء المؤكد أن ثمة تشابهاً بين الموقفين . ولقد سبق وتغلب أبى على معارضة أمه ، فهل يستطيع هذه المرة أن يجد وسيلة يقنع بها « نجية هانم » ، وهى كما قلت تركية الدم تجيد الإصرار وتهوى السيطرة . . هى ملكة غير متوجة على بيت السيد « عبد الرحمن كساب » ؟ ! .

ولم يفقد أبى حماسه ، بل مضى فى المحاولة بإصرار . . وبعد مناورات ومفاوضات ، ومداولات ومشاورات . . وبعد توسط « أبناء الحلال » من أصدقاء الأسرتين ، وافقت « نجية هانم » ! . . وتزوج الفتى « عدلى » من الفتاة « فاطمة » ، فى أبريل سنة ١٩٤٤ .

ولم يكن ثمة علاقة سابقة تربط بين العروسين ، فهكذا كانت تقضى تقاليد تلك الأيام . ومع هذا ، فإن فترة خطبتهما انطوت على حادثة

صورة الزفاف – محمد عدلى كفافى وعروسه فاطمة

طريفة : كانت جدتى « منيرة » قد مرضت ، ويقال إن هذا المرض نشأ عن كثرة البكاء خوفاً على ابنها الذى اعتاد أن يركب دائماً رأسه : وذهب المرض ببصرها . . وجاءها يوماً قائل يقول : إن ابنها شوهد فى أحد المسارح ، وبرفقته فتاة يدل مظهرها على أنها أجنبية . وغضبت الأم المتدينة ، وصممت على معاقبة هذا الابن العاق الذى لم يحترم التقاليد . . فما الذى حمله على هذا ، وقد ارتبط بفتاة أحبها ، ومن أسرة طيبة ؟ ! .

وظلت ساهرة تلك الليلة حتى استقبلته : ؛ وعنفته ، وأعطته درساً فى ضرورة احترام نفسه ، واحترام مشاعر عروسه واسم البيت الذى يصاهره : : وفوجئت به يضحك ، فإن التى كانت برفقته هى خطيبته « فاطمة » . : ونامت جدتى العزيزة راضية القلب ! .

* * *

وتحتفظ ذاكرة أسرتنا بموقف رائع لأمى . . فقد تعود بعض ضباط الجيش المصرى — فيما بين سنتى ١٩٤٠ و ١٩٤٨ — أن يلتقوا من وقت لآخر فى بيت أحدهم . وكان بيتنا — رقم (٣) شارع الملك بالقاهرة — من البيوت التى اعتادوا الاجتماع بها ليتشاوروا فى أمورهم ، وليحددوا موقفهم من الإنجليز ومن القصر . . كما كانت هذه هى اللقاءات التى تمخضت ، بعد سنوات قليلة ، عن تشكيل الضباط الأحرار . ويوم أن كان يحين الدور على بيتنا ليكون مقراً للاجتماع ، كان أبى يأخذ زوجه

الشابة إلى بيت أسرتها فى العباسية ، فيتركها هناك — زاعماً أنه مكلف بمأمورية خارج القاهرة .

ولكن الزوجة اكتشفت أن زوجها كان يعود إلى البيت ويسهر فيه حتى ساعات متأخرة من الليل ؛ وأن كل الظواهر كانت تدل على أن هناك من يشاركه سهراته . وفى مثل هذه الظروف ؛ لا بد أن تضع المرأة تفسيراً أنثوياً خالصاً ، وخصوصاً وهى بعد صغيرة السن ، وفى الشهور الأولى لزواجها . . وعلى ذلك ، فقد ظنت أنه كان يأتى بصديقاته إلى بيت الزوجية . وهكذا كان بيتنا ، فى سنواته الأولى ، وكأنه ينتظر انفجار القنبلة . . واضطر أبى إلى مصارحتها فى النهاية . وعند ما عرفت الحقيقة ، صمتت وكتمت أمر زوجها وأمر رفاقه .

وأكاد أتصور بالخيال نوع المشاعر التى عاشها بيتنا فى هذه الفترة . . فقد كان الموقف فعلا ، وكما يقول الفلاسفة والأدباء الوجوديون ؛ « موقفاً وجودياً » من الطراز الأول . . كان على أبى أن يختار بين أمرين ، كلاهما يحمل فى داخله قدراً متساوياً من الألم والمخاطرة . . كان عليه فى لحظة : إما أن يبوح بسرّه يكن سره وحده ، وإما التضحية بسعادته الأسرية ، وحبه الذى تحدى من أجله أشياء عديدة . . وكان يكفى أن يضطرب قليلا وهو يناقش زوجته ، حتى تتأكد شكوكها ، فإذا السعادة العائلية توليه ظهرها .

ولست أدرى — على وجه التحديد — الظروف التى صارح فيها أبى أمى بأمر رفاق الثورة . . ولا أعرف بالضبط كيف استقبلت منه هذا

طيار ثان محمد عدلى كفافى فى مايو ١٩٤٣ بعد تخرجه ، ومعه طيار ثان على إمام يناقشان بعض أمور الطيران ، وكان الطيران يومئذ فى أوائل عهده .

الخبر ، ولكن الشيء المؤكد أنها قد كتمت سره . . بل ساعدته فى مهمته . فاتسع حبها لزوجها ليشمل الحب للوطن كله . . أو دخل حبها إياه ليكون جزءاً فى حب الوطن الكبير . . ولتتعانق — فى لحظة واحدة نادرة — الأهداف الفردية وأهداف المجتمع كله ! .

وأعتقد أن هذه الرواية التى عرّضت بيتنا ذات يوم للخطر ، رواية صادقة إلى حد بعيد . . وأن والدى كان فعلا ذا صلة ودور ما بالمجموعة التى أطلق عليها فيما بعد « مجموعة الضباط الأحرار » . . والتى خرجت فجر ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ لتغيير الأوضاع .

ومما دعم اعتقادى هذا ما سمعته ذات يوم من السيد « وجيه أباظه » ، قال لى :

« محمد عدلى كفافى رحمه الله . . كان ضمن مجموعة ضباط الطيران التى كانت تسعى لتغيير الأوضاع ، بالتعاون مع بقية قوات الجيش . وكان من بين أفراد هذه المجموعة — بالإضافة إلى والدك — كل من الطيارين : عبد اللطيف البغدادى ، وحسن عزت ، ووجيه أباظه ، وأحمد سعودى حسين ، وعبد الحميد الدغيدى ، وعبد الرحمن عنان ، وأحمد سيف ، وحسن إبراهيم . . وقد قام بالتنسيق والإشراف على دور ضباط الطيران فى التشكيل ، وتحديد علاقته بالجيش فى ذلك الحين ، الرئيس « السادات » باعتباره أكبر

الضباط رتبة فى تشكيل الضباط الأحرار البرى والجوى على السواء . . »

ومما يؤكد هذا الكلام أيضاً ، ما دار ذات يوم فى جلسات محاكمات التصحيح سنة ١٩٧١ ، حين وجه رئيس المحكمة السيد « حسين الشافعى » سؤالا إلى السيد « عباس رضوان » عن مدى علاقته بالضباط الأحرار : وقد قال السيد عباس رضوان بالحرف الواحد إنه :

من أوائل الضباط الذين جُندوا فى بداية ظهور التشكيل الذى حمل فيما بعد اسم « الضباط الأحرار » ، وأن الذى ضمه إلى إحدى خلايا تشكيل الضباط الأحرار ، هو المرحوم قائد الأسراب « محمد عدلى كفافى » :

وهذا الكلام موجود وثابت فى مضبطة جلسة المحاكمة ، وقد نشرته الصحف اليومية وهى تغطى أحداث المحاكمات .

وفى نفس الموضوع ، وفى عدة لقاءات تمت بينى وبين السيد « عبد اللطيف البغدادى » — أكد لى سيادته أن والدى — رحمه الله — كان من أكثر الضباط المتحمسين لفكرة الثورة وتغيير الأوضاع ، وإذا كان القدر قد حرمه من إكمال المسيرة مع زملائه ، فإنه قد اشترك فعلا مع الجيل الأول من الثوار المخلصين فى وضع البذور الأولى ، التى نضجت بعد ذلك وطرحت ثمارها فى حياتنا ، بل فى حياة العالم كله ، فى شكل ثورة من أكثر الثورات تأثيراً فى العالم فى النصف الثانى من القرن العشرين .

وأذكر أيضاً أن ابن خال والدى السيد « يحيى حفيظ » قد حدثنى كثيراً ، مؤكداً أنه قد رأى بعينه اجتماعات متكررة فى بيتنا ، الكائن فى شارع الملك فى ذلك الحين .

* * *

وفى نهاية هذا الكلام عن مدى انتماء أبى للرعيل الأول من الضباط الذى صنع الثورة ، أقول : لا شك أن ما ذكرته هنا مجرد أحاديث أصدقاء ، تستمدّ قيمتها وصدقها من قيمة وصدق أصحابها ، وتستمدّ أهميتها كذلك من كونها إثباتاً لبعض الحقائق المتعلقة برفيق سلاح تركهم منذ فترة بعيدة . . إثباتاً لا دافع له — بالمنطق — غير عرض الذكريات عرضاً أميناً وسليماً .

وفى نهاية هذه القصاصة ، أعود لحديثى عن البيت الذى أحبت أمى فيه أبى وأولته كل الثقة ، إلى درجة كتمان سره وسر الرفاق . . فى هذا هذا المنزل رزق الزوجان بابنة سميت باسم جدتها لأبيها « منيرة » وابن سمى باسم جده لأبيه « محمد بهجت » . وكان ثمة اتفاق بأن تكون أسماء من يعقبهما بعد ذلك من الأبناء على أسماء الجدود من ناحية الأم . . ولكن موت أبى وضع نهاية للأمر ، وحال دون قدوم مولود جديد ومسميات جديدة . . وكثيراً ما قصّت لى أمى بعض ذكرياتها عن السنوات القليلة التى عاشتها مع أبى ، فلفت نظرى فى أحاديثها كثرة زياراتها أبى لقريتنا المتواضعة « بنايوس » . . لقد عشق أبى منذ طفولته القرية ، نفيها ذكرياته اللذيذة عن الدجاجات التى تبيض الحلوى . . وكان يهرب

إليها دائماً من مشاغل الحياة ، ليجدد وجوده وذاته فى خضرة قريتنا ، وجوّها الطيب المسالم . . وكان بيت أبى مفتوحاً دائماً لأقاربه من أهل « بنايوس » ، حين يأتون إلى القاهرة لزيارة أولياء الله الصالحين ، أو بحثاً عن علاج . . إذ لم يكن الفلاح يغادر قريته ، فى ذلك الحين ، إلا للبحث عن طبيب ينقذه من آلامه ، أو للتبرك ، بأهل البيت ! .

فى يدى الآن قصاصات تأخذنى بعيداً عن الدائرة الضيقة التى حدثنى عنها ذات يوم مضى ، الدكتور « صبرى الحولى » . . تأخذنى بعيداً ، بعيداً ، وفوق القصاصات أودعت كل ما عندى من كلمات عن أرض « الزيتون » .

« قصاصة رقم ٥ »

أسطورة يهودية على مائدة القمار

« فلسطين مزارى الفكرى والوجدانى .
أشم من خلال أحداثها رائحة عرق أبى » !

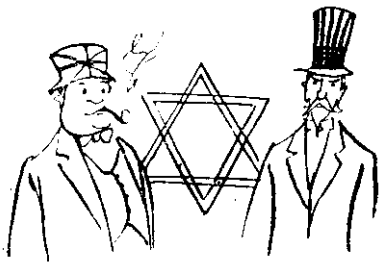

على امتداد شهور طويلة ، ظلت عيناى تلتقطان كل ما يصادفهما من كلمات عن فلسطين . . ولم أكن أفكر إذ ذاك فى كتابة تاريخ فلسطين ، أو حتى فى أن أرسم صورة ، ولو باهتة ، لما جرى حولها وما جرى فوقها . ولقد سألت نفسى : « ما الذى يجعلنى أجمع ما تحمله هذه القصاصات من معلومات ، لا سيما أننى لا أميل كثيراً إلى قراءة السياسة ، أو إلى الكتابة عنها . وأعترف أن الدافع إلى ما فعلته ، هو ارتباط قضية فلسطين باستشهاد أبى . . فهو دافع شخصى تماماً . وعلى ذلك فإن كان كل ما قرأته عن فلسطين : الأرض والرجال ، مجرد سياحة فكرية فوق الأرض التى عبرت سماءها ذات يوم طائرة أبى . لقد خيل إلى فى بعض الأوقات أننى أشبه بامرأة فرعونية تمارس واحدة من العادات الفرعونية المتأصلة فى عمق الضمير المصرى . . عادة زيارة الأماكن التى مات فوقها ، أو مات بسببها ، الأحياء .

فلسطين إذن ، ومن هذا المنطلق ، مزارى الفكرى والوجدانى . . أشم من خلال أحداثها رائحة عرق أبى ! . . أرى من خلال استشهاد الآلاف فوق أرضها ، قصة أبى تتكرر مع كل يوم جديد . كأننى هنا أقوم بمتابعة الأسطورة اليهودية التى نسجت بذكاء حول أرض « الزيتون » ! .

بينما كنت أجمع قصاصاتى ، التى أودعتها الكلمات

المتواضعة عن فلسطين ، وأحاول ترتيبها ، اتضحت أمامى مجموعة من الحقائق تشبه علامات الطريق فى رحلتى المستمرة لمتابعة قضية فلسطين :

ففلسطين — أولا — هدف سعى ويسعى إليه الكثيرون .. كل منهم يحركه دافع ، ولكل منهم نية مستقلة وغرض يحفزه .. سعى إليها اليهود ، والإنجليز ، والروس ، بالإضافة إلى الاهتمامات العربية المشروعة الخاصة بهذه المنطقة .

وفلسطين — ثانياً — تجربة لا أبالغ فى القول بأنها وحيدة وفريدة فى تجارب تصنيع الأساطير . . فقد تآزرت فيها كل خبرات رأس المال ، والعلم والتكنولوجيا ، والرأى العام لكى تجسد فى النهاية الأسطورة الزاحفة من بطن الزمن كى تصبح وجوداً واقعياً ، ولو مشوّهاً ، وسط عصر يرفض بطبيعته ومستواه كل الأساطير .

وفلسطين — ثالثاً — فى معاركها الأولى بوجه خاص ، نموذج مشرف لتعاون كل القوى العربية فى ميادين القتال ، سواء على مستوى الجيوش الرسمية أم على مستوى العمل الفدائى . . هو نموذج لا أعتقد أنه تكرر منذ عام ١٩٤٨ إلا مرة واحدة ، ذلك خلال حرب رمضان ١٣٩٣ هـ « أكتوبر سنة ١٩٧٣ م) . . فقد جددت مدافع « العاشر من رمضان » التقارب العربى والاصرار العربى على تحرير الأرض .

• • •

بين هذه الحقائق الثلاث، التى تشبه علامات الطريق « فى رحلة البحث عن فلسطين ، أجد لدىّ كلمات أبسطها على هذه الصفحات :

لقد استغل العقل الصهيونى — بذكاء ملحوظ — الأسطورة القديمة التى تقرر أن ثمة وعداً إلهياً للشعب اليهودى بالعودة إلى أرض فلسطين . وعلى الرغم من أن علم « الأنثروبولوجيا » الاجتماعية (علم دراسة الإنسان) يحمل بين دفتيه مئات من هذا النوع من الأساطير ، فإن الأسطورة اليهودية هى الوحيدة التى أفلتت حتى الآن من القدر المحتوم ، الذى يلقى بكل الأساطير فى بئر النسيان . . وينبغى أن نعترف بأن العقلية اليهودية ، والجهد اليهودى ، والتخطيط اليهودى تهدف — فى كل لحظة وفى كل مكان — إلى تجسيد هذا الوهم وتصنيعه وتصديره إلى كل الناس . فى لحظة غفل فيها منطق الوجود ، خرج من بطن الأسطورة اليهودية وجود واقعى له ملامح « الشوكة » فى ظهر الأرض العربية . . هذه الشوكة هى « إسرائيل » !

فى سنة ١٨٩٧ ، انعقد مؤتمر « بال » بسويسرا ، الذى دعا إليه ورأسه وصاغ فلسفته فيلسوف الصهيونية وحكيمها « تيودور هرتسل » . فبين قمم الجبال فى سويسرا ، نسج « هرتسل » وأتباعه أول قناع واقعى للأسطورة الدينية العتيقة .. قناعاً يخفى تجاعيد الزمن من فوق وجهها ، ويظهرها فى صورة شابة جذابة لها قدرة على لفت الأنظار . وتجمعت على مائدة المتآمرين فى « بال » مجموعة من القرارات والاقتراحات والتخطيطات فى انتظار ظروف جديدة كى تنطلق فتغرس أشواكها فى لحم الأرض العربية .

تيودور هرتزل دعا إلى مؤتمر بال بسويسرا وصاغ فلسفته

وتدق طبول الحرب العالمية الأولى . . ويدرك العقل الصهيونى أن الرياح تسير على هواه ، وتقربه من شاطىء المطامع . فقد كانت الحرب العالمية الأولى أول ورقه رابحة للصهيونية على مائدة اللعب الدولى . ولم يكن هذا الأمر غريباً . . فالحروب منذ أن كان الإنسان فرصة هائلة للعبة المساومات والمزايدات بين الدول والأفراد على السواء . . ومع عمليات « التسخين » التى سبقت أول رصاصة فى الحرب العالمية الأولى ، انتشر دعاة الصهيونية وفقاً لخطط دقيق ، يعرضون خدماتهم — من كل نوع —

على أطراف الصراع الدولى .

ويسقط الحلفاء فى المصيدة . . فقد أحدث الضغط الصهيونى تأثيراً هائلا على العصب الحربى للحلفاء . . ولما كانت الحرب لا تجرى فى كل لحظاتها على هواهم ، فقد تصرّف الحلفاء تصرف المغامر فى لحظة يأس . : فهو إذ ذاك لا يعرف بأى شىء يقامر . وتحوّلت فلسطين بكل ما يحيط بها من مقدسات إلى غنيمة على مائدة قمار لعينة ! .

نجحت الجولة الأولى فى المقامرة .. وظهر اليهودمن بين سحب الدخان السوداء للحرب العالمية الأولى ، وقد دبروا مع بريطانيا مؤامرة لم يلبث أن كشف عنها صراحة وعد بلفور المشهور ، وأعتقد أن العقل الصهيونى المخطط لم يكن فى حاجة ، حتى هذه اللحظة ، لأكثر من هذا الوعد . : فالمقامر الذكى تكفيه مجرد ورقة واحدة فى يده ، ليستمر فى اللعب حتى النهاية ، والصهيونيون من أحذق المقامرين وأبرعهم فى الغش والتحايل :

وتنصب مائدة القمار مرة أخرى ، والبشر جميعاً يتدافعون ليرقصوا رقصة الحرب العالمية الثانية . . وفى هذه المرة ، لم يكن عند بريطانيا ما تعطيه ، فقد كان وعد « بلفور » هو آخر ما فى « دفتر شيكات » الإمبراطورية البريطانية المنهارة . . وعلى الرغم من كونه بدون رصيد ، فإنها دفعت به إلى اليهود ليتصرفوا فيه على هواهم ! .

* * *

إن أوضاع الشعوب كأوضاع الأفراد ، لا تستقر على حال ، وكأنما كتب على كل شىء منذ البداية أن يتذبذب بين صعود وهبوط . وكانت

« بورصة » الأحوال الدولية تشير إلى ظهور مقامر جديد ذى ثروة طائلة ، وأحلام هائلة ، وغموض يحيط ببداية ظهوره على مسرح الأحداث الدولية .وهذا المقامر الجديد هو « الولايات المتحدة الأمريكية » ، التى أخذت تحتل — بحجمها الكبير وإمكانياتها الطبيعية والبشرية الغريبة — الجزء الأكبر من مسرح السياسة الدولية . وتطبيقاً لقاعدة المنفعة والاستغلال ، أدار اليهود ظهورهم لحليف الماضى (بريطانيا) ، وولوا وجوههم — وفوقها ملايين الابتسامات المرسومة — للأمريكان . ومن ثم ، فقد واكب الحرب العالمية الثانية عملية تسخير هائلة لرؤوس الأموال اليهودية بإمكانياتها الاقتصادية المذهلة ، لخدمة القوات الأمريكية فى كل مكان . وما إن تنتهى الحرب ، حتى تعلن الولايات المتحدة الأمريكية ، من مركز القوة هذه المرة ، أنها تبارك الرغبة الصهيونية فى إقامة دولة اليهود فى فلسطين . . وهكذا كسب العقل الصهيونى ورقة أخرى ، قدمتها إليه الولايات المتحدة الأمريكية هدية سائغة خالصة ! .

وهناك قاعدة فى علم السياسية ، تقول إن الاتفاق المستمر والإجماع الكامل فى لعبة الدول ، أمر لا يتحقق بالخيال . . فلا بد من قدر من المعارضة ، يدفع بالدم الجديد إلى قلب الأحداث .

لم يكن يعترض طريق بريطانيا والولايات المتحدة ، فى تنافسهما على إرضاء الصهيونية ، سوى روسيا .. روسيا القيصرية التى كانت تتطلع إلى

صورة نادرة لمجموعة الرواد الأوائل للطيارين ، وذلك فى عام ١٩٤٧ ، ويظهر فى وسطهم الشهيد قائد السرب محمد عدلى كفافى ، وذلك خلال التدريبات الشاقة على الطائرات القديمة المستهلكة .

أطماع خاصة . . ثم روسيا السوفييتية التى كانت تحرص على ألا تقوم فى الشرق الأوسط صنيعة وقاعدة لغريمتيها . . وعلى مر الأعوام ، تبلور رأى الروس فى الدعوة إلى إقامة إدارة دولية فى فلسطين . . فلا وجود صهيونى ، ولا إدارة بريطانية أو أمريكية ، وإنما إدارة دولية تضم ممثلين لكل الحلفاء . .

وكانت الترجمة الدقيقة للاقتراح الروسى تعنى أن يخسر اليهود النقطتين اللتين سبق الحصول عليهما من الأمريكان والإنجليز . وانبرت إنجلترا لمعارضة الاقتراح الروسى ، وليس لديها — بعد أن أعطت وعد بلفور — غير المعارضة والصراخ . . وألقت الولايات المتحدة فى المرقف بثقلها .

وتُنقل مائدة القمار — هذه المرة — إلى هيئة الأمم ، التى دخلت بدورها طرفاً فى اللعبة .

وخلال برنامج تصفية مشاكل الحرب العالمية الثانية ، تُصفى قضية فلسطين فى عجلة ، لتكسب الأسطورة الدينية القديمة مزيداً من الواقعية . وتربح الصهيونية الورقة الثالثة ، ممثلة فى ضمانات مهداة إليها من المجموعة المنتصرة ، لإنشاء وطن قومى فى فلسطين . بل إن المؤسسة الدولية ذهبت إلى أبعد من هذا ، فتولت تنظيم هجرة اليهود إلى أرض فلسطين .

حدث كل هذا بسرعة ، فى وقت كانت الأرض العربية تعيش فترة انتقال حضارى ، وتحاول الخروج من دائرة الاحتلال . حدث فى وقت قلبت فيه نتائج الحروب العالمية كل موازين القوى الدولية . وبالرغم

من كل ذلك ، فإن العرب لم ينسوا أن فلسطين عربية قبل كل شيء . . وكان لا بد من التحرك السريع لإعادة الأسطورة اليهودية إلى كتاب الأساطير . . للقضاء على الوهم الذى راح ينشر ويهدّد كل نظريات تغليب الحقيقة على الوهم ! .

« قصاصة رقم ٦ »

عقرب الثوانى فى ساعة القدر

« الحيانة بحار من الرمال المتحركة ، لها ملمس ناعم . . وتجر من يتعامل معها نحو الأعماق . فتكتم أنفاسه بالطين والرطوبة » !

الكلام عن فلسطين يهز الشخصية العربية من الأعماق .. يحيي في داخل الإنسان العربي تراثاً هائلا من الذكريات .. يفتح أمام البصر أبواب المستقبل، لا سيما بعد الوثبة المثيرة التي قفزتها قضية فلسطين من فوق حائط الجمود ، بعد معارك رمضان سنة ١٩٧٣ .. وفي تقديري أن فلسطين — بما يجري فوقها وما يجري حولها — نقطة التقاء بين كل الضمائر العربية ، مهما يكن اختلاف الاتجاهات والدوافع .

وإذا كانت حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ قد وضعت القضية الفلسطينية في بؤرة الشعور العالمي ، بعد أن تدحرجت طويلا على موائد المؤتمرات حتى كادت تختفي في لا شعور العالم .. إذا كان الأمر كذلك ، فإن استدعاء بعض الذكريات من عمق ذاكرة الأحداث قد يفيد القارئ .. كما أنه قد يريح الكاتبة، لاسيما أن استرجاع الذكريات يخفف من قلقها وتوتراتها المتصلة بالحديث عن الأب الغائب من سنوات بعيدة..

ذلك أحد دوافعي التي لا أملّ تكرارها ، حتى أبيّن أن سياحتي الفكرية والوجدانية حول فلسطين أمر جدير بأن يلقى قبولا من القارئ ، وحتى أجلو ضرورته بالنسبة لي ، لا سيما أن النضال من أجل فلسطين كان ميدان استشهاد أبي .

ولقد تطورت أحداث فلسطين تطوراً مفاجئاً وسريعاً ، حتى كادت أن تشبه دراما « عبثية » ، يضع سطورها كاتب مجنون .. دراما يجد

كاتبها لذة فى تعذيب الناس ، إذ يزرع جسماً غريباً فى عمق الوجود الدولى .. يشد حبال التوتر بين الشرق والغرب إلى درجة التمزق .. ذلك إحساسى من متابعة قضية فلسطين ، وأعتقد أن الكثيرين يعيشون نفس الإحساس !

فلنحاول أن نلقى نظرة على تطور الأحداث من حيث انتهينا !

بعد أن وضحت خطة توطين الصهاينة فى فلسطين ، زادت حركة المد والجزر فى بحر الأحداث الدولية ، وظهر أن جزءاً كبيراً من العالم يوشك على الاشتباك فى صراع مع أمواج عاتية .. أمواج التآمر الاستعمارى مع المطامع الصهيونية . إذ ذاك تطلعت الأنظار إلى الجمعية العمومية للأمم المتحدة ، على أمل أن تجد لها حلاً لتفادى مضاعفات بدا أنها قادمة على الطريق . .

والظاهر أن جانباً من تركيب الشخصية العربية مثقل بالنوايا الحسنة . ولقد وضحت هذه النوايا الحسنة مراراً فى التاريخ العربى بمراحله المختلفة . وفى عام ١٩٤٨ ، تعرضت النوايا العربية الطيبة لأزمة قاسية .. إذ أن الجمعية العمومية للأمم المتحدة خيبت الظن ، وبدلا من أن تحل المشكلة ، ولدت جريمة .. ففى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٩ ، طرحت قضية فلسطين فى دورة طارئة وعاجلة للجمعية العمومية فى الأمم المتحدة .:

وما أشبه اليوم بالأمس فى هذا المجال .. إذ تدخلت الولايات المتحدة الأمريكية بكل ثقلها ، مستغلة النفوذ الدولى الذى

أصبحت تتمتع به ، بعد مؤازرتها الحلفاء وتمكينهم من النصر فى الحرب العالمية الثانية . ونجح الدور الأمريكى فى توجيه الفائدة ناحية الصهاينة ، إذ وافقت على مشروع تقسيم فلسطين ٢٣ دولة ، فى مقابل معارضة ١٣ دولة ، فى حين وقفت ١٠ دول مكتفية بالتفرج ، متخلصة من الحرج بالامتناع عن التصويت !

ويزداد الإيقاع الغريب فى « دراما » القضية الفلسطينية .. وتصفق إنجلترا لهذه النتيجة ، بل تسرع إلى تنفيذها ، حتى قبل الموعد الرسمى للتنفيذ ، وكأنها تزيح عن كاهلها حمل الانتداب . وفى مكان كل جندى بريطانى يترك موقعه ، كان ثمة جندى إسرائيلى يفد ليشغل نفس المكان ، بعد أن يتسلم منه السلاح ! . . وكان محصلة هذا كله ، أن أصبحت كبرى المدن الفلسطينية فى قبضة الصهاينة ، واستُقطعت من جسم فلسطين العربية أجزاء عزيزة ، منها : حيفا ، وعكا ، ويافا .

* * *

والأحداث فى قضية فلسطين متداخلة متشابكة ، يشد بعضها بعضاً : ولذلك انتقلت ردود الفعل من المناطق الضيقة ، التى كانت تشهد توالى الأحداث فى قلب فلسطين ، إلى الأمة العربية كلها .. وبدا المشهد كما لو كانت الأنظار العربية كلها ، والإرادة العربية كلها قد تجمدت فى اتجاه هذه البقعة العزيزة من الأرض العربية . وامتلأ العمق العربى

كله بالرغبة فى التخلص من الوجود الصهيونى الزاحف فوق أرضه .

ولكن ما أعمق الفرق بين الرغبة والوسائل المحققة لهذه الرغبة .. فإذا كان كل شىء فى المنطقة قد بدا وكأنه معلق المصير بحركة عقرب الثوانى فى ساعة القدر ، فإن القرارات العربية — التى واكبت إيقاع الأحداث — لم تكن فى المستوى المناسب .. ومن وجهة نظرى، كانت قرارات عصبية.. وفى القرارات العصبية لا تلتقى النوايا الطيبة والرغبات الشريفة المحركة لهذه الرغبات . فعلى حين فجأة ، صدرت مجموعة من القرارات المتوالية بضرورة تحرك القوات العربية لتحرير فلسطين .. حدث هذا فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ ، فى نفس الليلة الأخيرة التى كان يقضيها الأسد البريطانى العجوز فوق الأرض المقدسة .. وردد الفضاء العربى كله أمر التحرك .

من مصر جاءت طلائع القوات العربية لتقيم مضاربها عند رفح والعريش . وكانت القوى العربية تتكون فى جملتها من مجموعة من التشكيلات العسكرية شبه المتكاملة، تتناسب فى العدد والعدة مع المستويات العسكرية المعروفة فى ذلك الوقت . فكانت القوى المصرية تتكون من لواءين للمشاة ، ولواء مدفعية ، ولواء مدرع ، ووحدة مدافع مضادة للطائرات، وأخرى للدبابات .يضاف إلىهذا ١٥ طائرة مقاتلة، و ٥ طائرات نقل تحولت تحت الحاجة إلى قاذفات قنابل ..

وذات صباح ،زار هذه القوات – المتمركزة فى رفح والعريش– الملك السابق فاروق . ولم ينس جلالة الملك ، وهو يغادر المعسكر ، أن يصدر أوامره إلى القوات بالتحرك إلى العمق الفلسطينى ، بينما كانت سيارته تندفع بعيداً عن ميدان القتال ! !

ومن هناك .. من أرض الهلال الخصيب ، جاءت القوات العراقية وتمركزت عند « الشونة » . . وكان ضيف الميدان هذه المرة ، هو الأمير عبد الإله – الوصى على العرش العراقى إذ ذاك – والذى أصدر بدوره أمراً للقوات العراقية بالدخول إلى العمق الفلسطينى .

وتصل إلى « الشونة » أيضاً طلائع القوات الأردنية ، وكان على رأس القيادة العليا الملك الهاشمى عبد الله .

الصورة العامة لميدان القتال توحى بإصرار عربى شديد على ضرورة الدخول فى معركة لتصحيح الأوضاع .. وعلى ما يبدو للناظر إلى الصورة كانت هناك قطاعات ثلاثة ، يعمل فى كل قطاع منها جيش من الجيوش العربية الثلاثة . . وكانت الخطة الموضوعة هى أن تلتقى قوات مصر والعراق والأردن بعد تطهير الأرض ، فى منطقة محدودة عند شاطئ البحر . . فى « تل أبيب » .

وكما قلت من قبل ، فإن النوايا كانت تبدو حتى هذه اللحظة حسنة .. ولكن ما أقل ما تصنعه النوايا الحسنة عند ترجمتها إلى حقائق !

* * *

مرة أخرى ، أستسمحكم فى وقفة أؤكد فيها أننى لا أكتب هنا تاريخ حرب فلسطين .. كل ما فى الأمر أن هذه مجرد انطباعات ، تدفعنى إليها محاولة تصور الظروف التى غاب فيها أبى عن دنياى . الأمر هنا مجرد زيارة خاطفة لمسرح الأحداث ، أتمثل فيها — ولو بالخيال — ما كان يجرى ، وما كان يسبِّبه .. ما كان فوق المسرح ، وما كان خلف « الكواليس » .. وخلال هذه الزيارة الخاطفة ، تملكتنى وحاصرتنى ليالى — طويلة عدة تساؤلات :

ماذا كان يحدث — أو مفروضاً أن يحدث — لو لم تمتد أيدى الخيانة فى الظلام ، لتصنع كارثة لن تلفظها ذاكرة التاريخ بسهولة ؟ .. ماذا كان يحدث — أو مفروضاً أن يحدث — لو لم تقم حلقة الرقص المجنونة حول أشلاء الأبناء ؟.. ماذا كان يحدث — أو مفروضاً أن يحدث — لو لم تنحرف دفة السفينة العربية ، فتسير فى مجرى غير مجراها الطبيعى ؟ .. ربما كان الأمر كله قد تغير من البداية ، لو لم يحدث هذا .. ولعله ما كان مقدراً — فى هذه الحالة — لكتابى هذا شرف أن تعانق كلماته عيناك !

أطرح هذه التساؤلات لارتباط معارك فلسطين — فى الوجدان والعقل —

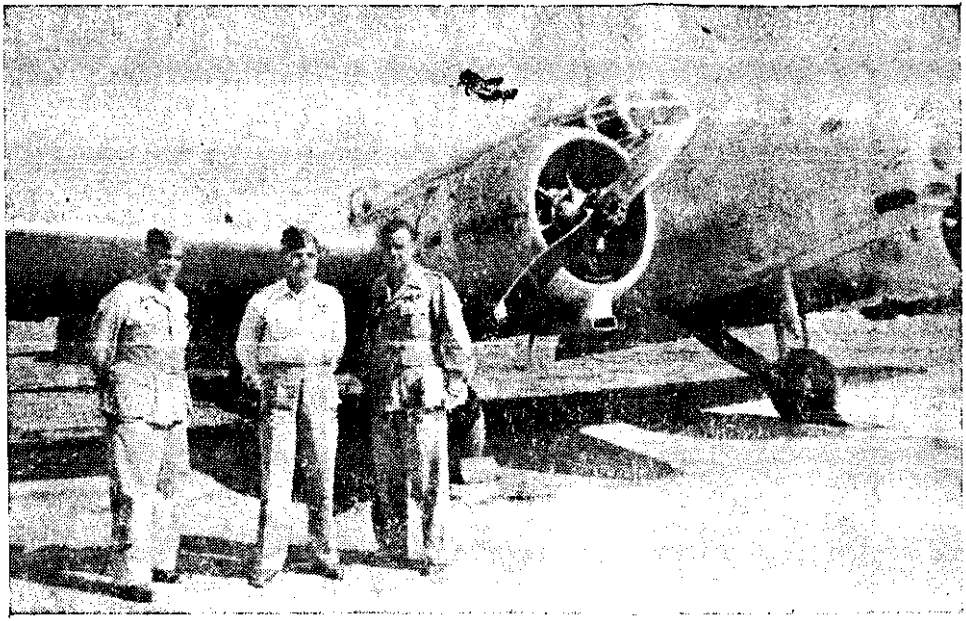

ملازم ثان محمد عدلى كفافى ، كان دائماً بأوراقه ومع طائرته ، وتظهر إحدى الطائرات المصرية ، وهى من مخلفات

بما عرف فى تاريخنا بـ « تجارة الأسلحة الفاسدة » .. ولارتباط « تجارة الأسلحة الفاسدة » فى عمق الشخصية العربية بالخيانة . وأنا ياقارئى العزيز المجهول أكره الخيانة .. أمقتها من أغوار القلب .. أشعر بأن التعامل مع الخيانة لا يعطى فرصة لزهور الحياة كى تنمو نموًّا طبيعيًّا .. فالخيانة تغتال الزهور فى قسوة ، وهى بعد براعم صغيرة .. الخيانة بحار من الرمال المتحركة ، لها ملمس مطمئن ، ولكنها تجر كل من يتعامل معها نحو الأعماق ، تكتم أنفاسه بالطين والرطوبة ، فلا يبقى من المشهد كله غير رائحة كريهة لسطح عفن !

إنها تساؤلات متكررة سمعتها خلال أحاديثى مع رفاق أبى فى السلاح ، وكان أبى يطرحها على الذين كانوا يحيطون به . فقد كانت أحاديثه معهم تدور حول مشكلة الأسلحة الفاسدة ، والطائرات القديمة المستعملة والمتبقية من مخلفات سلاح الطيران الملكى البريطانى (هكذا يقول اللواء عمر شكيب) .

وليغفر لى القارئ إذا ما كنت قد ابتعدت به عن موضوعنا قليلا ، ولنعد إليه مرة أخرى . .

كانت الخطة العربية الموضوعة تحقق تفوقاً عسكريًّا أكيداً للقوات العربية . والخطة .. أية خطة ، توضع دائماً فى إطار من الاحتمالات المحسوبة من قبل ، وليس من وجود بين هذه الاحتمالات لبند « الخيانة » . ولكن ها هى ذى لعبة « الأسلحة الفاسدة » تقلب الصورة تماماً ، فتجعل من كل الاحتمالات الموضوعية ، والمقدرة سلفاً ، مجرد احتمالات للنصر ،

الملك عبد الله بن الحسين ملك الأردن الاسبق

فى حين تصنع من الخيانة احتمالات مؤكدة للهزيمة .

تلك يا قارئى العزيز المجهول حقيقة قاسية ، تثير إحساساً غاضباً لم استطع أن أتغلب عليه ، أو أن أفر منه ، كلما عانقت عيناى الكلمات التى قدر لى التعامل معها ، فى دراستى لقضية فلسطين . ولكنا إزاء الماضى لا نملك سوى أن نسلم بأن ما حدث قد حدث ، وما كان من الممكن أن يحدث غيره .. ومن ثمة لنترك الأحاسيس الشخصية ، ولنمض فى متابعة الوقائع !

أحداث حرب فلسطين تلمع فى الذاكرة ، كومضات باهتة قادمة من جوف الزمن ! .. ها هى ذى طلائع القوات المصرية تدخل إلى فلسطين ، حتى قبل أن تنتهى سيطرة القوات البريطانية عليها .. قبل رفع الانتداب . وكان على رأس هذه القوات رجل ارتبط اسمه فى ضمير شعبنا بالإعجاب والتقدير ، هو « البكباشى » أحمد عبد العزيز ، قائد فصائل الفدائيين التى تحركت بسرعة وإيمان لتمهد الطريق لدور القوات النظامية :

ولا ينسى تاريخ الحركة الفدائية المصرية أن فصائل العمل الفدائى المصرى قد تعاون فى تكوينها مع قائدها البطل أحمد عبد العزيز مجموعة من ضباط القوات المصرية الشبان أذكر منهم :

زكريا الوردانى ، وحسن فهمى عبد المجيد ، ومعروف الحضرى ،

فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ دخلت الجيوش العربية فلسطين ، ويظهر الملك السابق فاروق والملك عبد الله بن الحسين ملك الأردن بعد اتخاذ قرار دخول القوات العربية أرض فلسطين .

وكمال الدين حسين ، وخالد فوزى ، ومصطفى كمال صدقى ، وزغلول شلبى ، وحمدى واصف ، وأنور الصيحى ، ومحمد سالم عبد السلام .. وهؤلاء مجرد نماذج من أبناء مصر الشرفاء ، ممن احترفوا العمل الفدائى ، أو ساعدوا على وجوده وسط ظروف بالغة الحساسية والتعقيد .

نعود إلى قوات الفدائيين التى قادها أحمد عبد العزيز ، لنجد أنها قد تخطت الحدود ، حتى وصلت إلى « خان يونس » ، متجهة ناحية « غزة » . . وقد ساعدت هذه العملية على فتح الطريق أمام القوات النظامية المصرية كى تدخل فيما بعد ، إلى أرض فلسطين ، وتسيطر على مناطق الجنوب الحساسة فيها .

تقدمت وحدات الفدائيين إلى « بئر سبع » ، ثم أوغلت فى تقدمها حتى « الخليل » شمالا . . وأخيراً استقر بها المقام فى « بيت لحم » ، حيث التقت بالقوات الأردنية . . وبعد أن أدخلت القوات المصرية بصفة رسمية إلى أرض فلسطين ، كان على فصائل الفدائيين مسئولية حماية القطاع الجنوبى الداخلى ، الممتد من « بئر سبع » عبر الخليج إلى « بيت لحم » . ومن هذا الموقع الممتاز ، امتدت عملياتها غرباً وصوب الساحل ، من « بيت لحم » حتى « بيت جبريل » . وهناك انضمت إلى القوات المصرية النظامية القادمة بحذاء الساحل ، من « غزة » إلى المجدل وأسدود .

* * *

هذه بداية مثيرة للقتال بلا شك .. كأنما كانت القوات العربية تعزف « سيمفونية الحرب » فى تناسق وانسجام ، فالقوات العربية كلها تتحرك متعاونة ، متناسقة ، يدعمها ويفتح الطريق أمامها قوات الفدائيين : « وكل شيء يسير فى طريقه المقدر والمرسوم له .

إزاء الأمر — وقد بدا على هذه الصورة — فإن الخيانة تتراءى شديدة المرارة ، وتتجلى المكائد — التى كانت تدبر فى الظلام — شديد القسوة : وفى النهاية تحولت كل القيم الشريفة التى صاحبت إيقاع أقدام الجنود إلى مجرد أمانى إنسان ! .. وحتى تبدو الفجوة هنا بين « ما كان» و« ما كان ينبغى أن يكون» واضحة ، لكى نعرف كيف شُوهت الأمنية فى الواقع ، لابد من اختيار نماذج شريفة لما حققه الجهد القتالى العربى فوق أرض « الزيتون » .. فمن خلال هذه الأمثلة وحدها ، يصبح للعطاء معنى فى مقابل الأخذ .. يصبح للموت وجود أكثر بقاء ودواماً من الحياة .. من خلال هذه الأمثلة وحدها ، يصبح لمن هم فى مثل وضعى الحق فى التمسك بذكريات الآباء .. يصبح لليتيم الحق فى أن يفخر بأن يكون يتيما .. بل يصبح لليتم نفسه معنى وقيمة !

« قصاصة رقم ٧ »

يوم أحد يتكرر

« . . تسلل مئات من العرب البدو إلى الميدان ،
واندسوا بين الجنود ، يجمعون الغنائم » !

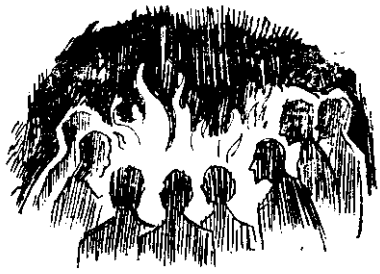

فى « كواليس » مسرح الأحداث ، توجد ذكريات كثيرة مختلطة عن فلسطين ، رواها لى كثير من رفاق أبى ، وكل منهم يشرح وجهة نظره من خلال مفهومه الخاص ، وكل يحاول أن يذكر ويتذكر ، وأن يحكى لى ما الذى كان يدور فى فكر أبى .. الشهيد .

كان دائماً ينادى بأن الطيران هو مستقبل الحروب ، فهو الذى يحدد سير المعارك . لذلك كان يطالب بتغيير الطائرات العتيقة ، وإحلال طائرات حديثة متقدمة محلها ، إذ كانت الطائرات المستعملة تتصف بعيوب فنية كثيرة . ومن هنا عرفت لماذا أصر أبى على دخول الكلية الحربية ، ولماذا تحول إلى مدرسة الطيران العام ..

كان الطيران يستهويه كأداة كفيلة بتحديد مستقبل الحروب !

ولقد حاولت أن أحدد لنفسى رؤية خاصة ، أنفذ من خلالها إلى هذه الأحداث ، حتى لا يبدو حديثى عنها معاداً ومكروراً ، وكى أفلت من حصار التكرار التاريخى الذى يعيد ترديد الأحداث ولا يهتم بتحليلها . ولقد كان الانطباع العام ، الذى خرجت به وأنا أتابع ما حدث فوق أرض فلسطين ، هو أن مصر — أولا — ومعها بقية الدول العربية — ثانياً — كانت تعانى انقساماً خطيراً فى تكوينها ..

بدت الساحة العربية كما لو كان القلب فيها قد انفصل عن العقل . . وعلى المستوى المصرى ، بدت مصر لى وكأنما

كانت شخصيتها تعانى من الانفصام .. انفصام بين ما كان يحدث فى الخطوط المتقدمة داخل أرض فلسطين ، وبين ما كان يحدث فى المدن وداخل القصور ! . . كان الفارق حقيقة مذهلة . . كأنما تمثل فى تركيب الشخصية المصرية يومها « دكتور جيكل » و « مستر هايد » ، قوة الخير وقوة الشر ! .. وبتأثير انفصام الشخصية المصرية وقتذاك ، طغا الجانب الشرير فى الشخصية .. ظهر « مستر هايد » ليطعن القوات المحاربة فى الظهر . قام « قابيل » ليحطم رأس أخيه « هابيل » ، بالخيانة والغدر فى هذه المرة ! . .

فهناك فوق أرض فلسطين ، وقف الرجال — رجال صناعتهم الحرب — يحتضنون البنادق ، ويعانقون القنابل ، ويقبلون الجراح .. وفى مقدمتهم رجال « أحمد عبد العزيز » مع الفدائيين الذين استولوا على « بئر سبع » يوم ٢٠ مايو .. بعد خمسة أيام فقط من وصول كتائب الجيش المصرى إلى قطاع غزة . وإنجاز الفدائيين هذا العمل أمر من الأهمية العسكرية بمكان .. إذ كانت « بئر سبع » إذ ذاك ، هى مفتاح صحراء النقب والبحر الميت فى الشرق ، والخليج والقدس فى الشمال . وقد تحقق بهذا الوضع تمييز واضح للقوة المصرية ، إذ بات العدو داخل مرمى نيرانها .. كما تسنى لها — فى الوقت ذاته — التعاون مع الجيش الأردنى الذى كان غريباً عن هذا الموقع . وثمة لحظة إيثار وصدق وصفاء هنا ، وذلك عندما

أعطت القوات الأردنية قيادتها للفدائى البطل البكباشى أحمد عبد العزيز .

* * *

هذا ما كان يجرى على الأرض .. أما بالنسبة للنسور الجوية ، فقد كان لهم دور فعال فى تغيير مسار الأحداث وحماية القوات البرية ، إذ بدأت الطائرات فى قصف مستعمرة « رامات داڤيد » .

الأحداث تمر .. وتكتشف القوات العربية أن الصهاينة قد تمركزوا مواقعهم وتحصنوا فيها ، مما يدل على أن الإعداد لتوطين اليهود فى فلسطين أمر تم التدبير له قبل سنوات بعيدة .. ولعل التدبير لزرع الوجود الصهيونى هناك ، قد بدأ ودخان الحرب العالمية الأولى يغطى السحاب .. وطبيعى أن يؤدى هذا التمركز إلى معارك عنيفة ..

وكانت أولى هذه المعارك فى مستعمرة صهيونية تسمى « رامات راحيل » .. وقد كلفت القوات الأردنية فى هذه المعركة بمهمة التمويه وخداع القوات اليهودية ، وذلك بأن تضرب أهدافاً أخرى بعيدة عن هذه المنطقة ، بغية اجتذاب الانتباه بعيداً عن الأهداف الحقيقية .

ولقد فقد سلاح الطيران الجوى الملكى (المصرى) ثلاثة من أعز وأغلى أبنائه فى يوم واحد ، وكان ذلك يوم ٢٤ مايو سنة ١٩٤٨ .. أولئك هم :

قائد السرب « نور الدين محمد نور الدين » ، وطيار أول « سعد طارق الدرينى » ، و طيار أول « تحتمس كامل غبريال » .. ولكن الطيران

أتاح الفرصة للقوات المصرية للهجوم على الهدف المطلوب ، وقد استطاعت فصائل الفدائيين — بصفة خاصة — تحقيق جزء كبير من النصر ، وغزو قطاع كبير من المستعمرة .

غير أن ما حدث بعد ذلك كان أمراً مثيراً وغير مقدّر أو مرتقب.. وكان يشبه ما حدث ذات يوم ، فى غزوة أحُد ، حين ترك الرماة موقعهم فوق الجبل ، وهبطوا ليأخذوا نصيبهم من الغنائم ، فأدى هذا إلى تحول الانتصار إلى هزيمة ! . .

ذلك أن مئات العرب البدو ، من أهل هذه المنطقة ، تسللوا واندسوا وسط الجنود والفدائيين يجمعون الغنائم .. وسرعان ما انتقلت العدوى إلى الرجال المحاربين أنفسهم ! ..

ووسط هذه الفوضى ، لم يستطع « أحمد عبد العزيز » السيطرة على الرجال ، لاسيما أن عدداً كبيراً من الذين أقدموا على هذا العمل لم يكونوا من رجال الجيش ، ولا من الفدائيين .. فلم يكن له عليهم سلطان !

* * *

لقد تأملت طويلا هذا الحادث ، وكان تعليلى إياه أنه مظهر لعادة قبلية توارثها العرب الأحفاد عن الجدود ، منذ حرب القبائل .. وأيًّا كان التعليل ، فإن هذا السلوك أحدث تغييراً مؤكداً على سير المعركة ..

وكان هناك مظهر آخر للانفصام داخل القطاع الأردنى . فقد تعرضت القوات الأردنية لمتاعب من ناحية قيادتها الإنجليزية ، إذ

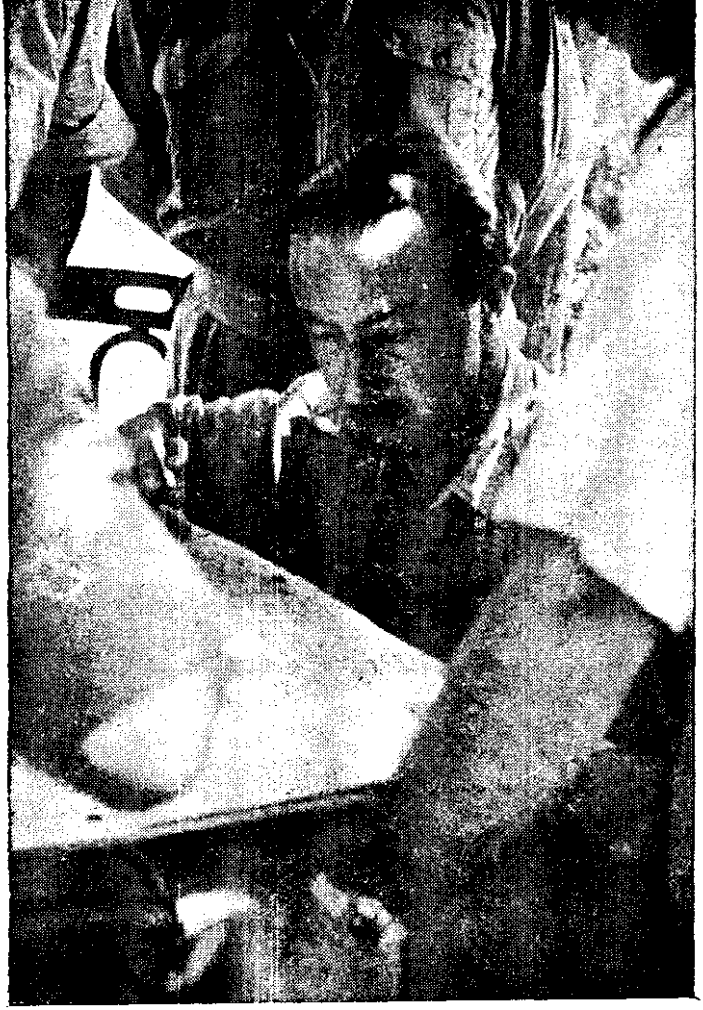

الأمير عبد الإله الوصى على عرش العراق يدير المعارك فى الجبهة الشرقية – باتفاقات مسبقة مع الإنجليز واليهود .

ضغط القائد الإنجليزى « جلوب باشا » على القوات الأردنية ، وسحبها من الميدان .. وهكذا وجد بطلنا المصرى « أحمد عبد العزيز » نفسه فى الميدان وحيداً ، وبرفقته عدد قليل من الفدائيين . ولا شك فى أن القوات الأردنية قد لعبت دوراً كبيراً فى سير المعارك .. خصوصاً وقد قلت من قبل إنها كانت تحارب — فى المقام الأول — القيادة الإنجليزية التى حاولت مراراً عزل هذه القوات الأردنية عن سائر القوات العربية .. ولا شك أيضاً فى أن هذا الوضع قد جعل للمتقاتل الأردنى شكل المتمرد على قيادته ، وهذا وضع أضاف مزيداً من المتاعب والمتناقضات ، وأوجد علاقة غير منسجمة بين الرجال والقيادة .. مما يدعم وجود حالة الانفصام التى تصورتها !

ولا شك فى أن ظروفاً من هذا النوع ، كفيلة بأن تدفع بالرجال إلى التفكير فى تغيير الأوضاع . وربما من هذه اللحظات ، وفى حضن هذه التجارب ، حملت الضمائر والقلوب والإرادات فكرة تغيير الأوضاع .. إلى أن ولدت الثورة وأصبحت واقعاً ملموساً ، فى فجر ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، فوق الأرض المصرية . . وامتدت آثارها بعد ذلك إلى سائر البلاد العربية .

وبرغم كل هذه الظروف فقد استطاعت القوات المصرية الرئيسية (حوالى ٨ كتائب) الوصول إلى « خان يونس » ومنها إلى « غزة » . ولم تصادف فى ذلك مقاومة تذكر ، بسبب عمليات الفدائيين التى مهدت لها الطريق . وكانت نتيجة هذه الوثبة المصرية أن أصبحت « غزة »

قاعدة رئيسية لسلسلة من العمليات الحربية حدثت فيما بعد .. إذ كانت الفرق تخرج منها للقتال فى مختلف الاتجاهات . فمن « غزة » وجهت طلقات المدافع إلى « المجدل » ، ثم اشتركت فى سلسلة من المعارك الشرسة فى « أسدود » . ويقال بصدد هذه المعارك إن القوات المصرية لم تكن تمتلك العدد الكافى من المدافع . ومن ثم اضطرت إلى ضرب الأهداف الأرضية بالمدافع المضادة للطائرات ! .. وكان ثمرة هذا التصرف الذكى سقوط « أسدود » .. أحد المعاقل الرئيسية للصهيونية !

ومن « غزة » خرجت قوات أخرى للتمركز فى « بئر سبع » ، وفرضت سيطرتها على جنوب فلسطين كلها ، وعلى منطقة صحراء النقب .

وخلال معارك فلسطين جميعاً بدت حقيقة لا مفر من ذكرها ، وهى أن القوات المصرية كانت تضطر فى بعض الأحيان للتخلى عن بعض مواقعها ، حتى تحقق لنفسها استفادة أفضل بالمقاتلين ، وحتى تحتفظ لنفسها بميزة الحركة السريعة المركزية ناحية « تل أبيب » نفسها .

غير أن نظرة فاحصة إلى بعض الأمور المتوارية فى « كواليس » أحداث فلسطين ، تكشف عن مأساة .. فإلى جوار أشرف نضال للرجال ، وإلى جوار الفرحة الساذجة لجمع الغنائم ، وإلى جوار الضغط الإنجليزى على القوات الأردنية ، وإلى جوار جهد فدائى كان يفتح بجسده طريقاً لقوة قادمة .. إلى جوار كل هذا ، كانت تختفى المأساة .. وعن المأساة تحمل قصاصاتى لكم بضعة سطور حزينة ، أقدمها فى الفصل التالى .

« قصاصة رقم ٨ »

مأساة الأسلحة الفاسدة

« لا تزال مسرحية تجارة الأسلحة تمثل حتى
الآن ، فى مناطق عديدة من عالمنا المعاصر ،
الذى يقف فوق تلال الأحزان »

يشغلنى أحياناً التفكير فى بعض أمور قد يبدو أنها لا تهم غير الفلاسفة . فأحياناً أجدنى مشغولة العقل والقلب بموضوعات مثل القضاء والقدر ، ومتناقضات الوجود ، والعلاقة المثيرة بين الخير والشر ، وبين الفضيلة والرذيلة . وأنى لأعرف تماماً أن كلماتى هنا تندرج تحت الجهد الذاتى ، الذى يريح الكاتب من توتراته العنيفة أكثر مما يضيف للقارئ مادة جديدة. ومن هنا وجدت نفسى — وأنا أرتب كلمات هذه القصاصة — أفكر فى مسألة العلاقة بين الخير والشر ، وأجمع بينها وبين العلاقة بين الفضيلة والرذيلة ، إذ أن ما حدث فى معارك فلسطين — كما أراه — كان حواراً بين الخير والشر ، ومناظرة بين الفضيلة والرذيلة . . « ديالوجا » مستمراً بين الحياة والموت . وقد استهوتنى هذه الفكرة تماماً ، فإذا بى أخضع ما فى قصاصتى الثامنة لمنطقها .

لقد كانت الحروب دائماً فرصة هائلة للربح ، والانتهازية ، والمنفعة الذاتية ... هكذا كانت منذ أن سجل « قابيل » بعدوانه على أخيه أول محاولة للحرب .. ومع تزايد تسرب طاقة الشر من أعماق الإنسان ، واندفاعه نحو التدمير ، أخذت تنتشر أغرب أسواق التجارة .. أخذت تنتشر « بورصات » هائلة ، تزدحم بأصحاب الوجوه البشعة .. « بورصات » مجنونة ، تتذبذب فيها الأسعار بين ارتفاع وهبوط باندفاع شديد .. بضاعتها المعروضة هى الأسلحة ، ولكن البضاعة الحقيقية المتداولة فيها

هى الإنسان ! .. إنها مفارقة تتجاوز كل مشاعر السخرية بكل مشاعر الحزن .. فها هى ذى الروح البشرية ، أغلى ما فى الإنسان ، وأعز ما أودعه الخالق فى كيانه ، يهبط رصيدها لتصبح أرخص من المال ! . وكم مالت كفة ميزان الدنيا ناحية الدنانير ، ملقية بالإنسان إلى أسفل السافلين !

وكانت حرب فلسطين فرصة سانحة لنشاط هذه التجارة .. كانت معارك فلسطين مشهداً من « فيلم » طويل ، له اسم ثابت فى كل اللغات : اسم « تجارة الأسلحة » .. تجارة باقية من الصراع الأزلى المجنون بين الخير والشر .. وهى فصل من مسرحية قديمة ، لها مقدرة هائلة على مقاومة عوادى الزمن ، وتحدى عوامل القدم ، والقفز فوق أسوار العصور المتعاقبة .. فمسرحية « تجارة الأسلحة الفاسدة » المشهورة لاتزال تمثّل فى هذه الأيام ، مع تعديلات بسيطة فى النص وأسلوب الإخراج وشخوص الممثلين .. إنها تمثل فى مناطق مختلفة ومتنوعة من عالمنا المعاصر ، الذى يقف فوق تلال الأحزان .. تمثل فى بعض البلدان النامية ، والبلدان المناضلة فى وسط أفريقيا السمراء البشرة ، البيضاء القلب .. تمثل فى صحارى آسيا الصفراء ووديان أنهارها ، بين شعوب كانت مستضعفة فقامت تعلن إرادتها !

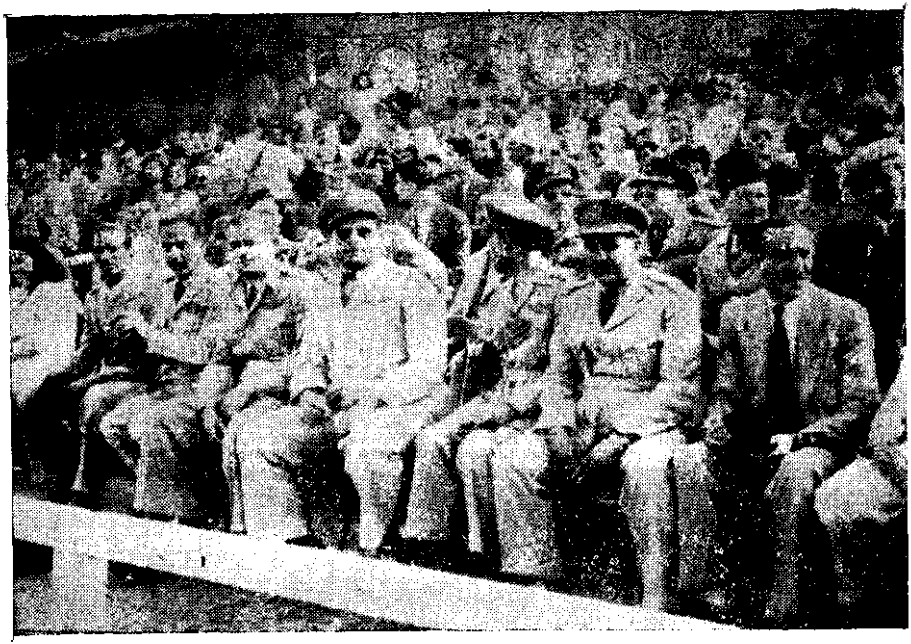

الشهيد قائد السرب محمد عدلى كفافى فى إحدى المناسبات التقليدية الروتينية الرسمية وبجواره
يحيى الشناوى وعمر شكيب ، كانت هذه المناسبات بالنسبة له روتيناً تقليدياً

و « تجارة الأسلحة » متنوعة ، على كل لون ، ومن كل صنف : فقد تتناول بيع أحدث ما اخترعه علماء الدمار ، ليمارس دوراً إيجابياً فى حصد أرواح الخصوم .. والمثل النموذجى الذى يقدم عادة هنا ، هو موقف الولايات المتحدة الأمريكية وتأييدها الذى وصل إلى حد الاندماج مع إسرائيل ، حتى كأن هذه ولاية من ولاياتها .. وقد تتداول تجارة الأسلحة صنفاً آخر .. فتقدم فى الأسواق أسلحة تصنع الهزيمة ، أسلحة تقتل من يحملها ، وتنقذ خصمه .. والنموذج المثالى الذى يقدم هنا ، والمتصل بالعرب ، هو صفقة الأسلحة المشهورة فى حرب فلسطين ..

* * *

هكذا نجد أن صفقة الأسلحة الفاسدة جزءاً من مسرحية اسمها « تجارة الأسلحة » . وفى هذه المسرحية فصل مجنون ، عنوانه : « اختراع السلاح » . فى نطاق هذا الفصل يُتخذ البشر فئران تجارب ، تقاس قدرتهم على مقاومة السموم ، وتغيرات الضغط ، وعمليات النسف البدنى والمعنوى لتكون معياراً للإنتاج .. وترسانات الأسلحة العالمية ترى معارك البشر أفراحاً ، تقدم فيها أحدث منتجاتها ليستخدمها عرسان المعارك فى ليالى الزفاف إلى الموت ! فخلف هذا النوع من التجارة يقف الصراع العقلى الجبار .. صراع يمارس بالتحدى التكنولوجى ، ويمثل أفظع أنواع الصراعات العلمية . ومن ثم فإن علوم الموت ترى فى الحروب فرصة هائلة ، تنزل فيها إلى الميدان بنظرياتها ومخترعاتها ، وتجعل من الدنيا صورة مكبرة لمعمل التجارب .. إذ تختبر إيجابيات المخترعات العسكرية ، وتتخلص من سلبياتها !

والمهزلة هنا مبكية بقدر ما هى مضحكة!.. إذ أن الآلاف المؤلفة من البشر تتحول إلى فئران .. يصبح الإنسان بكل ما فى كيانه من مشاعر وانفعالات ، من أحلام ومخاوف ، فأراً فى أنبوبة اختبار .. حيراناً للتجارب ، كائناً يسخّر لقياس مدى فتك الأسلحة ، دون ما اكتراث بما له من شخصية ، وبما منحه الله إياه من حقوق ، وبما خلقه لأجله كخليفة فى الأرض .

آلاف من قصص الحب والأمانى والأحلام تغتالها رصاصات طائشة ، وقد تكون مجهولة المصدر ! .. تخنقها سحب السموم تطلقها طائرة يسخرها باغ ، طاغية ، لتلوث زرقة السماء وصفاءها !

إن البحث العلمى هنا يدخل فى تحدٍّ حضارى شرس ومثير . . يدخل طرفاً فى أقدم «دراما» عرفها الإنسان .. «دراما» الخير والشر !

وفلسطين — كما قلت من قبل — كانت كلمة فى فصل « الأسلحة الفاسدة» من مسرحية «تجارة الأسلحة» .. لقطة فى مشهد قصة دمار! .. فى ذلك الوقت تمكن سماسرة السلاح من الوصول إلى قمة التنظيم السياسى فى مصر .. وأحاطوا بالملك ووزرائه ، يوسوسون لهم حتى أدخلوهم فى اللعبة الخطرة المربحة .. وكى تكون الصفقة مضمونة الربح ، كان لابد من الوصول إلى تخطيط يضمن لكل الأطراف المتصارعة جزءاً من الربح.. وهكذا وُضعت ميزانية صفقة الأسلحة الفاسدة فى معارك فلسطين ، بحيث

تدخل ملايين الجنيهات إلى جيوب من كانوا يملكون قرار الموافقة ، وملايين لا تقل عنها إلى جيوب سماسرة وموردى أسلحة الموت .. وكان الحساب الختامى الواقعى لمثل هذه الصفقة — ببساطة شديدة — إنقاذ « الصهيونى » ، بل — أكثر من هذا — وضعه فى مركز التفوق على العربى.

والحق يقال : إن الشر كان سخياً فى العطاء ، فتدفقت الأسلحة الفاسدة فى سيل غامر ، ومن كل الأنواع .. فالشيطان يعطى بسخاء ، وفم القبر مفتوح دائماً ، لا يكف عن الصراخ طلباً لطعامه المفضل : الإنسان .. الإنسان من كل لون وكل عمر !

* * *

من المبادئ الأساسية فى «السيكولوجية» العسكرية ، صياغة العلاقة بين المقاتل وسلاحه .. تعميق الروابط بينهما .. ولكم تتراءى لى العلاقة بين الرجل وسلاحه — فى كل الأوقات — كما لو كانت قصة حب مزدوجة .. حب الرجل لبندقيته ، ولهفة البندقية لرصاصتها ! .. فبدون عشق أصابع الرجل لزناد البندقية ، لا ترتاح هذه الأصابع إلى معانقة الزناد ، ولا تسمح البندقية لرصاصتها بأن تنطلق لتغوص فى صدور الخصوم !

وما دام الأمر هكذا ، أو ينبغى أن يكون هكذا ، فنى وسعنا تصور عمق الغدر حين فوجئ أبطالنا — فى حرب ١٩٤٨ — بالقنابل تشتعل فى أيديهم ، وبالرصاصات تتجه إلى صدورهم ، وبالطائرات تتناثر رماداً قبل أن تترك عجلاتها الأرض .

وكان رد الفعل الذى لابد منه لهذا الغدر ، نسف علاقة الحب والعشق بين المقاتل وسلاحه ، وتحوُّلها إلى نفور وبغض وازدراء وتوجس .. ومن ثم سيطرت على الرجال إذ ذاك — وهذا منطقى وطبيعى — حالة من الخوف الشديد .. خوف كريه ، لزج ، يجمِّد الإرادة ، ويقضى على الثقة فى النفس ، ويدفع حيناً إلى اليأس ، وحيناً إلى المخاطرة التى تستهدف استرداد الأمل والثقة .. ذلك أن طعنة الغدر لا تخلو تماماً من فوائد .. إنها كالسم قد يقتل ، وقد يعالج ويشفى .. بل إن الحب ذاته قد يدفع العاشق إلى الانتحار ، وقد يعمق ارتباطه بالحياة :

بهذا المقياس ينبغى أن ندير بسرعة الوجه الأسود للكارثة ، لنرى وسط الحطام زهرة بيضاء قد نمت .. فقد ولدت بتأثير « أزمة الأسلحة الفاسدة » عدة حركات شريفة . وفى طليعة هذه الحركات الشريفة حركة تولدت عن رغبة الضباط المصريين فى تفادى الكارثة بالحصول على سلاح صالح ، سليم . : وتعلموا مهاجمة معسكرات العدو فى فلسطين ، والمستعمر فى بلادهم ، للحصول على أسلحة بديلة . ونجحوا فى هذا إلى حد بعيد . ثم ازدادت هذه الحركات الشريفة عمقاً واتجهت إلى المستقبل ، وصحبتها رغبة الضباط الحارة فى علاج الأزمة من جذورها .. فى رفع المتناقضات الموجودة فوق الأرض العربية . :

هكذا ، وفى خلال التجربة ، نضجت تماماً فكرة الثورة المصرية .:

ثورة وضعت فى مقدمة أهدافها – وربما فى مرحلتها الجنينية – ضرورة تسوية المتناقضات الموجودة على الساحة العربية: بين الحكومات والشعوب.. بين الرجال والسلاح .. بين « قابيل » و « هابيل » .. بين « دكتور چيكل » و « مستر هايد » !

ومن الطبيعى أن هذا الأمر لم يخطر ببال الذين وضعوا المشروع الأصلى لصفقة الأسلحة الفاسدة ، وما كان ليخطر ببالهم مهما أنعموا النظر فى مشروعهم..ولكن المؤكد أنه جاء نتيجة تمخضت عنها الصفقة، بالرغم من كل حسابات مدبريها ، وعلى غير ما كانوا يتصورون !

وما دمنا نستعرض بسرعة بعض فوائد أزمة الأسلحة الفاسدة،فينبغى ألا ننسى أنها أيقظت ضمائر بعض كتاب مصر الشرفاء ، وفى مقدمتهم « إحسان عبد القدوس » ، فهاجموا – فى جرأة قد تكون أعنف من كل ما شهده تاريخ الصحافة المصرية – فساد السلطة . وانطلقت كلماتهم تخصّب أعماق الإنسان المصرى بالرغبة الأكيدة فى التغيير . ولقد دعم موقف الكتاب الشرفاء هنا ، نجاح تشكيل الضباط الثوريين فى تصوير وثائق الصفقة القاتلة .. وهى « خبطة » موفقة ، وضعت الملك وحكومته فى قفص الاتهام .

* * *

هذه ملاحظات سريعة ، توضع فى الاعتبار حين نحاول استجلاء رؤية ثورة ١٩٥٢ وهى بعد أمنية فى ضمير الغيب ! .. وإذا كانت الأسلحة الفاسدة قد أحدثت تأثيراً سلبياً مثبطا ،على نفسية وإرادة المقاتل العربى ، فإن قرار الهدنة جاء سريعاً ليوقع الشلل بالقطاع العربى كله ..

ومن ذلك الحين والزمن يجرى فى صالح الصهاينة .

وإذا قدر لكلماتى هذه أن تعيش طويلا ، فأرجو أن يكون واضحاً فيها ، أن أحداث الزمن التى ظلت متعلقة طويلا بذيل ما هو إسرائيلى ، قد أفاقت لنفسها ذات يوم فى شهر رمضان من عام ١٣٩٣ الهجرى (أكتوبر ١٩٧٣ م) . . ربما فى ثورة ضمير ، رجع فيها التاريخ إلى نفسه وثاب إلى رشده ، فأراد أن يكفر عن بعض خطاياه :

وجدير بنا أن نؤكد هنا أن صفقة الأسلحة الفاسدة لم تكن — فى حد ذاتها — العامل الذى فجّر المشاعر المصرية . . بل كانت هناك النتائج التى ترتبت على استخدام هذه الأسلحة ، والضحايا الذين استشهدوا بسببها ، إذ أن استشهاد المئات من خيرة الشباب أذكى جذوة الشعور العربى بالخيانة والغدر . . وأيقظ الوعى إلى ما كان من دور للمسيطرين على مقاليد الحكم فى خدمة الإمبريالية المتحالفة مع الصهيونية . .

وكما وحّدت المأساة الإرادة المصرية ووجّهتها إلى تغيير الأوضاع بالثورة . . أدت الصورة التى انعكست بها المأساة عينها فى أجزاء أخرى من العالم العربى — إلى توحد الإرادة العربية عامة : :

ومن ثم فلا مغالاة هناك فى القول بأن الشهداء هم طلائع مسيرة الثورة — منذ حرب ١٩٤٨ — على الأرض المصرية ، وعلى الأراضى العربية الأخرى . . المسيرة التى لاتزال ماضية فى إصرار وعناد لتحرير الأرض . .

وإذا كان الشهداء قد ذهبوا ، فإن من قدّرت لهم الحياة من رفاق الثورة عادوا وفى نفوسهم التصميم على التطهير ، وعلى القضاء المبرم على الجراثيم التى كانت تنخر الكيان العربى .

وهكذا صنع رفاق الكارثة ثورة امتد أثرها على أوسع نطاق ، فلم يقتصر على المنطقة العربية وحدها ، بل انتشر فى العالم كله فى النصف الثانى من القرن العشرين . . ولا يزال .

. . . . . .

. . . . . .

طائرة وديعة تعبر سماء حى مصر الجديدة بالقاهرة ، بركابها ومعهم الشوق إلى المطار .. ويأخذنى صوت الطائرة إلى دور الطيران فى معارك فلسطين .. وقبل أن أتناول هذا الدور ، أطل من النافذة لأغسل عينى فى زرقة السماء .. فالعينان دائماً نافذة لذكرياتى . . . وأعود إلى مكتبى لأعاود التحليق فوق الورق !

« قصاصة رقم ٩ »

المشيُ فوق السّحبِ المنخفضة

« . . . بين السماء والأرض يقضى رجال الطيران حياتهم ، فإذا عانق أحدهم الموت وسط السماء ، تناثر كله على الأرض . . وإذا مات على الأرض صعدت روحه إلى السماء . فهو كلمة حائرة بين السماء والأرض » !

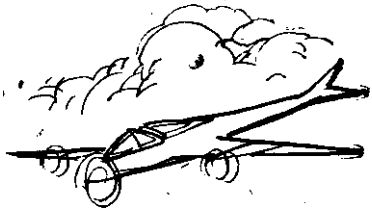

لكم شغلت فكرى العلاقة بينى وبين الطيران .. وقد حاولت مراراً ، كعادتى ، أن أضع هذه العلاقة تحت « الميكروسكوب » كما يقولون ، أحاول الوصول إلى إجابات لتساؤلات : ما الذى يربطنى حقيقة بعالم الطيران ؟.. ما الذى يجعلنى أعيش وكأننى أحمل فى داخلى طائرة ، بل سلاح طيران بأكمله ؟.. لماذا أبحث عن أخبار الطيران وكأننى أبحث عن أخبار أبناء عائلتى ؟.. ويمكنك أن تقيس على هذه الأسئلة الكثير والكثير .

وعلى ما يبدو ، بدأت علاقتى بالطيران منذ بعيد .. إلى درجة أننى لا أعتقد أن انتساب أبى إلى سلاح الطيران كان مجرد مصادفة ! . ولقد خدم أبى فى الطيران ، ومات داخل طائرته . وكأن الموت يثبت بهذا الحادث ارتباط أبى بهذه المهنة حتى النهاية ! . ومن خلال هذا المنطق ، حاولت أن أضع تعليلات لاهتمامى المتزايد بكل ما هو متصل بالطيران . .

ثم تشاء الظروف أن أفكر فى وضع كتاب عن الطيران ، فترددت على المكتبات ، والمطارات ، والأماكن المختلفة . . وقابلت الرجال هناك ، الكبير منهم والصغير . . وسمعت الكثير عن أبى من بعضهم ، لاسيما الذين زاملوه فى خدمة السلاح .

ومن خلال هذا الاحتكاك المستمر ، أحببت عيناى لون

كارت تهنئة سلاح الطيران الملكى المصرى فى عام ١٩٤٢ : بمناسبة مرور عشر سنوات على إنشاء سلاح الطيران الملكى المصرى.
(من مخلفات أوراق الشهيد)

الطائرات ، وعشقت أذناى أزيزها ، وامتلأ القلب بانفعالات أثارتها حكايات ملائكة الجو وشياطينه ، من الرجال والنساء .. وتبلور هذا الاحتكاك فى حقائق تزيد من تعميق وتأكيد دور الطيران فى الحرب الحديثة ، وفى المستقبل عامة .

إننى أحاول هنا أن أمكن كل قارئ من أن يلمس هذا كله .. أن أقوده بيدى إلى كل الأماكن التى لها صلة بالطيران ، وبالأحداث ، وبحرب فلسطين ، وأن أصعد به إلى السماء !

ويتدخل القدر ليوثق علاقتى بالطيران مرة أخرى ، وقد جاء تدخله هذه المرة مليئاً بالكبرياء والشجن .. فخلال معارك رمضان ١٣٩٣ هـ. (أكتوبر ١٩٧٣ م.) ، قدمت أسرتنا شهيدها الثانى من أبناء الجو .. وهكذا أكد القدر للمرة الثانية حتمية ارتباط أسرتى بالطيران إلى الأبد . حتى الموت !

عذراً يا قارئى المجهول ، فإن تأملاتى توشك أن تنسينى واجبا نحوك .. واجب أن أستضيفك فى جولة أقدم لك فيها بيتنا ، أسرتنا ، أقصد أسرة الطيران ، فأعرفك بأبناء العم وأبناء الخال .. بفرسان الجو ، عشاق المشى فوق السحب المنخفضة .

* * *

قال لى طيار عجوز ، لا يزال الحنين إلى ارتقاء الجو يسكن فى قلب

عينيه ، إن مصر قد عرفت الطيران الرسمى أول مرة فى سنة ١٩٣٢ .. وكان معظم الطيارين — بحكم ظروفهم — من خريجى المدرسة الحربية ، الذين فضلوا اختيار هذا الفرع من السلك العسكرى . . وفى البداية ، كانت هيئة التدريس والتدريب من الإنجليز ، وأشهرهم — فى ذلك الوقت « صول » اسمه « ويب » ..

وكانت الطائرات العاملة بمدرسة الطيران العالى إذ ذاك ، بسيطة ومتواضعة ! .. كان فيها طائرات من نوع « مايلزماچستر » ، وطائرات تعليم من ماركة « آفرو — ٦٢٦ » . . . كانت هذه الطائرات بسيطة ومتواضعة حقاً ، إذ كان فى كل طائرة مروحة واحدة .. وفى هذه الطائرة كان المعلم يستقر فى مقعد أمامى ، بينما يقبع الطالب فى مقعد خلفى . ومع مضى الأيام ، انضمت إلى خدمة مدرسة الطيران العالى طائرات من ماركة « أوداكس » .

ولقد عمل على هذه الطائرات رواد الطيران المصرى الأوائل ، وأذكر من بينهم : كبير المعلمين — فى ذلك الحين — الفريق أول طيار « محمد صدقى محمود » ، والطيارون الأوائل : « صلاح زكى » ، « وحسن المغربى » ، « ومحمد حافظ » ، « ومحمود شفيق حبيب » ، وقد رأس هؤلاء قائد السرب « نعمان ندا » .. وكان يعمل إلى جوار هؤلاء طاقم من الطيارين الإنجليز ، وتصادف أن كانوا جميعاً « صولات » فى الجيش الإنجليزى ! .. فلم يكن بينهم سوى ضابط واحد من البعثة الإنجليزية فى مصر .

على أرض فلسطين الحبيبة، البطل محمد عدلى كفافى، ومعه أحدزملائه فى مطار من الطائرات المؤجرة من الملك عبد الله للحكومة المصرية — خلال الحرب .

كانت هذه هى الصورة العامة لمدرسة الطيران العالى . أما عن سلاح الطيران المصرى ، فقد كان مكونا من سربى مقاتلات قوامها طائرات من طراز « جلاديتور » ، ثم سرب استكشاف جوى وقاذفات قوامها طائرات

من طراز « لايسندر » ، ثم سربى مواصلات من طائرات من طراز « آفرو آنسون » . كان ذلك فيما بين سنتى ١٩٣٢ ، ١٩٤٠ ، وهى عين الفترة التى التحق أبى فيها بمدرسة الطيران .. ففى سنة ١٩٣٥ ، ترك أبى خدمة سلاح المشاة ، وقد كان يعمل فى الكتيبة الرابعة مشاة فى منقباد ، بمديرية أسيوط — كما ذكرت من قبل — ليلتحق بسلاح الطيران . . وكانت دراسة الطيران وقتها بسيطة ومختصرة .. وتخرج أبى فى مدرسة الطيران العالى سنة ١٩٤١ .

وتحتفظ ذاكرة سلاح الطيران بالكثير من الأحداث المحزنة ... ففى اليوم الذى كانت مدرسة الطيران تحتفل فيه بدفعة طيارى سنة ١٩٤١ ، امتزجت الضحكات بالآهات ، والبسمات بالدموع .. إذ تعانق الموت بالحياة فى هذا اليوم ، وفى أثناء الاحتفال بتخريج هذه الدفعة التى كانت أكبر دفعات الطيارين عدداً ..

فبينما كانت كل العيون تتطلع إلى السماء ، وهى تتابع نسور الجو الجدد ، وقد راحوا يستعرضون مهارتهم فى الطيران ، إذ بالنار تشتعل فى إحدى الطائرات ، وإذا بها تهوى من السماء فى قسوة ، وسط ميدان الاحتفال ! ..

وكان قائد الطائرة المنكوبة هو الملازم ثان « شكرى حشاد » .. أخ أكبر للفريق طيار « محمد نجيب حشاد » . وكان المثير فى هذا الحادث ، هو تدبير القدر ، الذى لا يعرف حكمته فى حينه سوى الله .. التدبير

الذى يدفع بالمرء بعيداً عن المجرى المألوف فى حياته ليسوقه إلى مصير مكتوب له فى الغيب ، وإن لم يدر به .. ذلك أن « شكرى حشاد » كان واحداً من ستة من ضباط الشرطة ، آثروا التحوّل عن حياة مأمونة إلى حد ما ، ليلتحقوا بمدرسة الطيران . أولئك هم : محمد ولى الدين ، وأبو بكر موسى ، وعباس المسيرى ، ومحمد العربى ، وجمال خورشيد بكير . ثم شكرى حشاد الذى لقى حتفه يوم تخرجه بالذات !

ومن رافق أبى فى دفعة سنة ١٩٤١ — غير هؤلاء — لاعب الكرة المعروف فى الأربعينات : الكابتن « زقلط » . أو العميد طيار محمود حافظ إسماعيل .

* * *

وتمضى مع مزيد من الأحداث المحزنة .. ، يدفعنى إلى ذلك محاولة التعرف على « سيكولوجية » رجال الطيران .

ومحدثى — هذه المرة — هو الفريق طيار « محمد سعد الدين الشريف » ، مستشار الرئيس لشئون الطيران المدنى ، قال الرجل :

« هناك قول شائع فى وسطنا ، بأن من كل شقيقين من الطيارين ، لا بد أن يموت واحد . وقد أكدت هذا القول مجموعة من الأحداث . فلم ينج من هذا القدر سوى الأخوين « حسين » و « على » ذو الفقار . وقد كان لى — أنا شخصياً — نصيب فى هذه الظاهرة الغريبة ، الحزينة . فذات يوم ، كنت عائداً من مطار « فايد » على طائرة « إليوشن ١٤ » ،

وبرفقتى الفريق أول طيار « محمد صدقى محمود » .. كان ذلك يوم ٧ مارس سنة ١٩٥٦ ، على التحديد .. وعلى بعد ١٥ كيلومتراً من « مطار ألماظة » ، فوجئنا بعمود من الدخان الأسود يربط بين السماء والأرض. وقال لى ضابط برج المراقبة — إذ اتصلت به لاسلكياً — إن هناك طائرة قد هوت منذ لحظات . وتملكتنى إذ ذاك مشاعر الأسى ، فكل من يعمل فوق السحب أخ لى ، زميلاً كان أو تلميذاً .. وعندما هبطنا ، عرف الفريق « صدقى محمود » أن قائد الطائرة المنكوبة كان شقيقى الأصغر ، الملازم « فؤاد سعد الدين الشريف » ، الذى لم يتعدّ عمره إذ ذاك ٢٣ سنة !

ويبدو أن قدَرَ الطيارين يقتضى أن يواجه كل منهم ، فجأة وعلى غير توقع ، مثل هذه اللحظة البالغة القسوة . فكم من طيار شاهد أعزّ الأصدقاء يهوى إلى جواره ، وهو عاجز عن إنقاذه .. وكم كُلّف كل منهم بالتوجه لجمع أشلاء الطيارين من شهداء الجو . والكلام هنا ولا يزال للفريق « سعد الدين الشريف » ، الذى شاء حظه أن يكون أول مصرى يعمل على الطائرات « الهليكوپتر » ، وهى التى تُكلّف دائما بعمليات الإنقاذ ، كما أنه كان قائداً لسرب الإنقاذ . ويروى الفريق « الشريف » لى — والحزن لا يزال يعيش فى قلبه — الحادثة التالية :

« هوت إحدى الطائرات المصرية فوق جبل الجلالة ، فى السويس ،

فى منطقة مملوءة بالمرتفعات والمنخفضات والأخاديد ، وكانت محاولة التوجه إلى هذه المنطقة مغامرة لكل من يعرف طبيعة عمليات الإنقاذ ، ومع هذا فقد صممت على ضرورة الذهاب .. ولم يكن ثمة طبيب أو ممرض حاضراً لأصطحبه ، مما اضطرنى إلى أن أصطحب الشيخ « محمد عبد الحق » ، وكان وقتذاك واعظ سلاح الطيران .. فانطلق معى بعد أن لبس « الأوفرول» وقفازى الطيران .. وهناك ، جمعت أشلاء لثلاث ضحايا ، ونقلت حوالى ١٢ جريحاً .. وما إن رجعت ، حتى أصبت بانهيار عصبى ، فظللت أبكى أكثر من ساعة ! » .

• • •

ولعل من الجدير بالذكر ، أن عدداً كبيراً من رفاق أبى من الطيارين ، شارك فى المجهود الحربى للحلفاء ، فى أثناء الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ — ١٩٤٥) ، ومنهم قادة الأسراب : مصطفى ماهر ، ومحمود شريح ، وطلعت ، والسيد زيتون ، وصالح كامل نجاتى ، وحليم زكى .. والطيارون الأوائل : محمد نبيه حشاد ، ورفاعى ، وعمر بكير ، وكامل خليل عفت ، ومحمد سعد الدين شريف ، وسعيد ثابت .. وقد عمل بعضهم بوحدة النقل الجوى البريطانى الثالثة No — 3.A.D.U. ، وعمل الباقون بالوحدة رقم (١) للنقل الجوى No1A—D — U . وكان أفراد الفريق الأول يقودون الطائرات المقاتلة الجديدة ، من موانئ غرب مراكش إلى قاعدة جوية بالجزائر ، ومنها إلى ميادين القتال فى شمال أفريقيا وجنوب إيطاليا وكورسيكا ..

قائد سرب محمد غدلى كفافى ومعه زميلان من رفاقه فى السلاح

كان الطيران بالنسبة لهذا الجيل من الطيارين هو كل حياتهم ، كان كل منهم مع طائرته كلمة حائرة بين السماء والأرض .

ثم قيادة طائرات أخرى من القواعد الأمامية بميادين القتال المختلفة ، إلى قواعد جوية خلفية ، لإجراء الإصلاحات الأساسية التى تكون فى حاجة إليها . وكان من الأمور العادية أن تسقط بعض الطائرات فى البحر الأبيض فى أثناء رحلتها من إيطاليا وجزرها إلى شمال أفريقيا ، لعطل يصيب محركاتها .

وقد قام الطيارون المصريون بنقل حوالى ٨٥٠ طائرة خلال عام ١٩٤٤ ، كما اشتركوا فى تجميع الطائرات المقاتلة قبل فتح جبهة جنوب فرنسا ، فى آخر ذلك العام .

وقد روى لى الفريق الطيار « محمد سعد الدين الشريف » ، فى سياق ذكرياته عن الفترة التى عمل بها مع الطيران البريطانى ، حادثة أفلت فيها من الموت فى عمق البحر :

فقد كان قائداً لتشكيل من طائرات « سپيت فاير » ، استعد للطيران من الجزائر إلى إيطاليا . وكان معه اثنان من الطيارين الإنجليز ، طلب منه أحدهما أن يتبادلا طائرتيهما ، فوافق .. وأثناء عبورهم البحر ، توقف محرك طائرة الطيار الإنجليزى (الطائرة التى أوشك الفريق الشريف أن يستقلها) ، وهوت بقائدها إلى البحر ، ونجا الفريق الشريف ! ..

وتتوالى القصص ، فيقول : « توليت يوماً قيادة طائرة من طراز « موستانج » إلى إحدى الوحدات الجوية بجزيرة كورسيكا . وفى رحلة العودة ، قُدتُ طائرة أخرى ، كانت فى حاجة للإصلاح ، وقيل

لى إن محركها كان يتوقف فجأة عن الدوران فى أثناء الطيران . . وبالرغم من خطورة هذا الخلل ، أقدمت على المغامرة ، وأقلعت بها بصعوبة . وفعلاً ، توقف محركها فوق البحر ، وقبل أن أحاول الهبوط بالمظلة بثوان ، دار المحرك من تلقاء نفسه . ولكنه عاد فتوقف مرة أخرى ، عند ما اقتربت من الشاطىء الإفريقى . . ووفقت آخر الأمر فى الهبوط بها اضطراريًّا فى مطار عنابة » !

هذا عن الطيارين المصريين الذين ألحقوا بوحدات الطيران البريطانى . أما التشكيلات المصرية التى ساهمت فى الحرب العالمية الثانية ، فمنها سرب مقاتلات بقيادة قائد الأسراب « محمد حافظ » ، اشترك فى المجهود الجوى بالصحراء الغربية ، كما قامت أسراب من طائرات « اللايسندر » و« الآنسون » بعمليات الاستكشاف الجوى فوق البحر الأحمر وخليج السويس ، وقام سرب الأرصاد الجوية بالطيران إلى طبقات الجو العليا ، وإمداد الوحدات الجوية للحلفاء بالمعلومات ، بالرغم من ضعف إمكانيات هذا الدرب وفى عدم وجود أجهزة « الأكسوچين » بطائراته .

هذه صور من التعاون الذى بذله السلاح الجوى المصرى فى تلك الحرب لقوات الحلفاء . ولقد بذل الطيارون المصريون الشبان أقصى ما يحمل البشر ، وفقدَ عدد منهم فى أدغال أفريقيا وفى الصحراء الكبرى . ولكن هذا لم ينل من تحمسهم للتعاون ، إذ كان يحدوهم الأمل فى أن يساهموا بذلك فى نجاح الساسة المصريين فى تلك الفترة ، تطبيقا لمعاهدة سنة ١٩٣٦ ، وفى أن تكافأ مصر على خدماتها بالظفر باستقلالها

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ..

ولكن الحلفاء كانوا يضمرون لها « جزاء سنمار » .. إذ حرصوا بعد الحرب على تنفيذ وعد « بلفور » الشهير ، وعمدت بريطانيا إلى زيادة إحكام قبضتها على الأراضى المصرية وعلى حرية الشعب المصرى !

* * *

تلقى طيارو هذه الدفعة تدريباتهم فى « مطار الخانكة » ... ونظراً لصغر حجم هذا المطار ، قُسم الطيارون إلى مجموعتين : المجموعة الأولى كانت تتلقى تدريبها من الساعة السادسة إلى العاشرة والنصف صباحا ... والمجموعة الثانية من العاشرة والنصف حتى الواحدة والنصف . وكان الطيارون ينصرفون — بعد التدريب — إلى ثكناتهم ، فلا يبقى فى المطار غير الضابط المنوّب (النوبتجى) .. ومن الجدير بالذكر ، أن « مطار الخانكة » هذا كان واحداً من مطارات ثلاثة ، هى كل ما كان فى مصر من مطارات ، فى ذلك الحين ، وهى : مطارات الخانكة ، وألماظة بالقاهرة .. ومطار الدخيلة بالإسكندرية . ثم أخذت القوات الجوية المصرية ، بعد ذلك ، مطار حلوان عند ما تركه الإنجليز فى سنة ١٩٤٥ .

وسط هذا الجو تخرج أبى ، وعاش أحلى أيام عمره . القصيرة .. وكم رحت أتخيل هذه الأماكن وأنا بصدد الكتابة عنها ، وكأنها بيت أسرتنا القديم !.. إنها البيت الذى مارس فيه أبى العمل الذى أحبّه : الصعود والهبوط ... فى هذا البيت ، كانت تربض طائرته تنتظر قدومه... وهو كغيره من رفاق السلاح قد أقام علاقة ودية مع طائرته ، كأنها حبيبة

يتلهف إلى لقائها . . . يقضى الليالى إلى جوارها ، فى انتظار أن يصطحبها فى الصباح ، ليرقى بها إلى عنان السماء ، فى رحلة ودّ يومية .. يغسل أقدامها فوق السحب المنخفضة ، ويغمس رأسها فى زرقة السماء ... وهناك من فوق ، كان يطل على الأرض ، فيعاوده الحنين إلى الهبوط ... وبين السماء والأرض يقضى رجال الطيران حياتهم ، فإذا ما عانق أحدهم الموت وسط السماء ، تناثر كله فوق الأرض .. وإذا مات فوق الأرض ، صعدت روحه إلى السماء ! .. كأن الطيار همزة وصل بين الصعود والهبوط .. هو كلمة حائرة بين السماء والأرض !

ولقد قدّر لأبى ورفاقه فى هذه الدفعة ، تحمل مسئولية الدفاع عن الحق العربى فى أرض فلسطين ...

ولكن ، أستميحكم عذراً فى لحظة ، لأرتب أوراقى عن دور الطيران فى معارك ١٩٤٨ ، فأجعل منها موضوع القصاصة التالية .

« قصاصة رقم ١٠ »

الموت فوق تل من الضحكات !

« لقد أراد أن يموت . . . فوق تل من الضحكات . . . » .

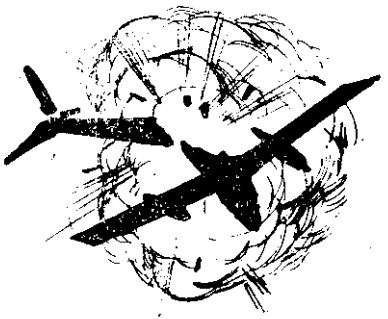

أميل دائماً – فى أفكارى ومشاعرى – إلى الانتقال من العام إلى الخاص .. إلى البحث عن إطار شامل ، تصبح كل « الذاتيات » فى داخله خطًّا منسجما فى لوحة كبيرة . وربما كان هذا الميل المنطلق الذى اتسعت منه ذكرياتى عن حرب فلسطين ، لتشغل عدة قصاصات ترسم خريطة واضحة الملامح ، قدر الاستطاعة ، للظروف التى ذهب فيها الرجال إلى هناك !

وإذا كانت قضية فلسطين قد شغلت هذه المساحة من خواطرى وأفكارى وقصاصاتى ، فلأنها الخلفية الكبيرة التى يقف فوقها الطيران المصرى ورجاله ، وتتجلى عليها جهودهم وحكاياتهم .. خصوصًا أن سلاح الطيران كان عند قيام حرب ١٩٤٨ : هو السلاح الجديد – نسبيًّا – فى القوات العسكرية المصرية .. وهو السلاح الذى ارتبط به أبى ، بعد أن غير طريقه ، منتقلاً إليه من سلاح المشاة ...

فى الأيام الأولى للمعركة ، صدرت الأوامر إلى السلاح الجوى (الملكى) المصرى بالاشتراك فى المعركة .. وكانت مهمته إذ ذاك ، تقديم العون والدعم للقوات المحاربة فوق الأرض ووسط البحر .. ويلاحظ أن العمل الأساسى للطيران كان – فى تلك الفترة – مقتصراً على مهمة النقل الجوى ، سواء نقل المقاتلين أو نقل المعدات .. ومع تصاعد سير المعارك ، بدت الحاجة واضحة إلى ضرورة تطوير خدمات الطيران ، لتصبح أوسع نطاقا

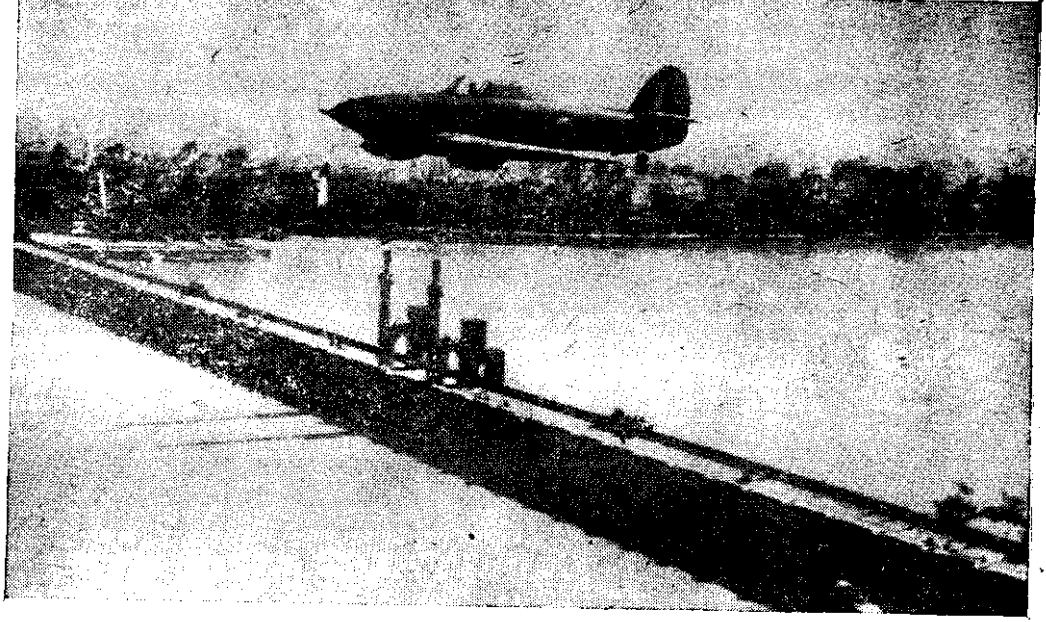

كانت الطائرات صغيرة ، كلها من مخلفات سلاح الطيران الملكى ، تطير على ارتفاعات منخفضة .
(من مخلفات الشهيد البطل)

وأكثر مشاركة فى القتال .

ولما لم تكن مصر تملك فعلاً القوة الجوية الكافية من الطائرات — عدداً أو نوعاً — فى ذلك الحين ، فقد تحايل الخبراء المصريون لسد النقص .. وأجريت بعض التعديلات على طائرات النقل ، لكى تتحول إلى « قاذفات قنابل » ، وذلك بأن كانت أجهزة القذف الجوى تثبّت فى بطن أجنحة الطائرات ...

وعلى الرغم من بساطة هذا التعديل ، إلا أنه أعطى القوة الجوية المصرية بالتأكيد مقدرة على تطوير خدماتها ، وأداء دورها بكفاءة عالية .. بل إنه رفع متوسط حمولة الطائرة المصرية وقتذاك ، حوالى ١٥٠٠ رطل من القنابل .

ويذكر كل رفاق الجو فى عمليات ١٩٤٨ ، على سبيل المثال . ما استطاع أن يفعله الشهيد الطيار « عبد الحميد أبو زيد » بمثل هذا النوع من الطائرات المتواضعة . فقد كان « أبو زيد » مصدر إزعاج حقيقى للإسرائيليين ، حتى صار مجرد ذكر اسمه يثير الرعب فى القلوب !

ولقد قال لى اللواء طيار « شفيق حسيب » ، وهو يصف الطيار الشهيد « عبد الحميد أبو زيد » : « كان الطيار أبو زيد من أكفإ طيارينا المقاتلين ، وظهرت براعته بوجه خاص ، عند ما تمكنت إسرائيل من الحصول على بعض الطائرات ، بعد الهدنة الأولى .. فما من مرة صعد فيها إلى الجو لمقابلة طائرة معادية ، إلا أسقطها . حتى كانت رحلته

الأخيرة ، على طائرته المقاتلة من طراز « فيورى » « فقد أصيبت طائرته وهوى بها إلى البحر فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٤٨ » .

* * *

كان أبى واحداً من الرجال الذين كلفوا بتنفيذ العمليات الجوية ، فى ذلك الوقت . وكانت المهام الأساسية للسلاح الجوى (الملكى) المصرى ، تنحصر فى ضرب وقذف المستعمرات اليهودية ، وتدمير خطوط الإمدادات والمواصلات وتشتيت التجمعات .

وفى ذات يوم جلست إلى الرجل الطيب : اللواء طيار « يحيى الشناوى » وكيل أول وزارة الطيران والسياحة .. قال لى فى أبوة حنون : « كنت وقتذاك ، يا منيرة ، أركان حرب مطار العريش .. وكنت زميلاً لوالدك فى دفعة ١٩٤٨ ، وكان معظم طيارى هذه الدفعة يعملون على طائرات : « ماكى » و « فيات » و « هارت » .. وهى طائرات من بقايا الحرب العالمية الثانية ، انتقلت إلى مصر بالتوريث من الجيش البريطانى » .

ولقد ظل أبى يخدم فى السرب الرابع الجوى ، ويقود طائراته من طراز « آنسون » حتى سنة ١٩٤٥ ، حتى نقل إلى السرب الثالث .

وكانت العمليات الأساسية للسرب الثالث بالذات ، هى إقامة جسر جوى مستمر ، لنقل الرجال والمعدات من المطارات المصرية إلى ميادين القتال . وكانت الطائرات المستخدمة فى السرب الثالث الجوى وقتها من نوع « داكوتا » .

ومن الرجال الذين زاملوا أبى فى السرب الثالث الجوى :

الطيارين « عبد اللطيف البغدادى » ، « يحيى الشناوى » ، « عبد المنعم عطا الله » ، « وعمر الجمال » ، « وعمر شكيب » .

وقد التقيت بزميل أبى فى السرب الثالث ، اللواء طيار « عمر شكيب » ، فروى لى عنه الحادثة التالية :

« فى صباح يوم ١٩٤٨/١١/٤ ، غادرت قاعدة ألماظة الجوية بطائرتى « الداكوتا » — ٨٠٧ ، مقلاً خمسة وعشرين ضابطا من ضباط أركان الحرب ، قاصداً محطة العريش الجوية .

« وما إن وصلت بطائرتى فوق البحر الأبيض المتوسط على الساحل الشمالى لسينا ، حتى هوجمت من طائرتين مقاتلتين إسرائيليتين ، أطلقتا على الطائرة مدافعهما الرشاشة ، فأصبت فى وجهى وفى يدى ، واستقرت إحدى الرصاصات فى غشاء قلبى ...

« وبالرغم من النزيف الحاد ، فقد اتجهت بطائرتى نحو مطار العريش ، لأنزل بها حيث تتوفر وسائل الإنقاذ لمن يكون قد أصيب من ركاب الطائرة ! .. ومما زاد من خطورة الموقف ، امتناع مدفعية المطار المضادة للطائرات من العمل ، خوفاً من أن تصيبنا بعض قذائفها ..

« وقد ظللت مسيطراً على أعصابى حتى استطعت أن أزحف ببطن طائرتى على أرض المطار ، دون أن أتمكن من إنزال العجلات للانزلاق بها على الأرض .. ولم أرفع يدى عن عجلة القيادة — بالرغم من إصاباتى

المتعددة — إلا حين استقرت طائرتى على الأرض ، ونزل كل ركابها سالمين .. وإذ ذاك انكفأت على عجلة القيادة ، وغبت عن الوعى » .

ونقلت إلى المستشفى الميدانى حيث أجريت لى أولى عمليتين جراحيتين ، وبعد أيام ، نقلت بقطار الجرحى من العريش إلى مستشفى العجوزة بالجيزة ، وكان مخصصاً فى ذلك الوقت لجرحى الحرب من العسكريين .

ولقد قضيت أياماً فى سريرى ، فى شبه غيبوبة . ولما استرددت ذاكرتى ، كنت قد فقدت أبى — ابن دفعته — الذى نال شرف الاستشهاد فى سبيل وطنه بعد إصابته هو بخمسة أيام فقط !

وتمر الأيام .. وحينما سمحت حالتى الصحية ، قام الدكتور حسن إبراهيم — نجل المرحوم الدكتور على باشا إبراهيم — بإجراء العملية الجراحية الثانية لى ، لاستخراج الطلقة التى استقرت فى غشاء قلبى .. وقدّر لى أن ألزم المستشفى حوالى ستة أشهر ، قبل أن يتم شفائى .

* * *

وكما قدمت القوات البرية أدلة مؤكدة على مقدرة المقاتل المصرى ، خصوصاً فى الظروف القاسية ، قدمت القوات الجوية من ناحيتها أمثلة كثيرة على براعة مقاتل الجو المصرى . واشتهر الطيارون المصريون إذ ذاك بحذق الطيران المنخفض . وطبيعى أن هذا الوضع يعرض الطائرات والطيارين لمخاطر جسيمة ، إذ يصبحون فى نطاق مرمى نيران الأعداء ،

أو يواجهون مخاطرة الاصطدام بالمرتفعات . ويبدو أن القيادة المصرية قد أحست بهذا الخطر ، فى ذلك الحين ، فأصدرت تعليمات مشددة بعدم الطيران المنخفض . وأطاع الرجال الأمر ..

ويصمت الفريق « عبد المجيد الرافعى » ثم يبتسم وهو يروى لى الحادثة الطريفة التالية :

« توقفت طبعاً — أنا والزملاء — عن الطيران على ارتفاعات منخفضة ولكننى كُلِّفتُ ذات يوم ، وكنت بدرجة طيار أول ، بمهاجمة إحدى المستعمرات .. وبعد أن ضربت الطائرات المصرية الموقع . لاحظت — وأنا فى طريق العودة — أن الموقع خال تماماً من السكان والجنود .. وتسرب الشك إلى نفسى ، وهبطت برغم تحذيرات القيادة ، حتى كادت عجلات طائرتى تلامس حقل قمح قريب .. هل تعرفين ماذا وجدت ؟ كان كل أهل المستعمرة وقوة حمايتها مختبئين بين سنابل القمح . وعادت الطائرات المصرية لتدك الأرض وتكمل المهمة التى كلفت بها » !

* * *

من العام إلى الخاص أسير .. من المجموعة إلى الفرد أمضى .. من قصص ومغامرات الطيارين أسعى ، إلى قصة واحد منهم أنشده .. فى وسط هذه الظروف ، وُجِد « أبى » .. وبين هؤلاء الرجال عمل .. وكان له — كما كان لهم جميعاً — أخطاء وحسنات ، وكان له — كما كان لبعضهم — فضل الاستشهاد .

وذاكرة الرجال من رفاق الحرب لا تنسى بسهولة حكاية شهيد ما ، فإن صورة الرجل الذى يسقط وهو يطلق سلاحه ، لا يمكن أن تغيب عن زملائه .. إنها تصنع شقًّا عميقاً فى ذاكرة المقاتلين ، فلا تستطيع الأيام أبداً أن تردم هذا الشق ! .. ولقد لاحظت أن هناك مجموعة من الصفات يُجمع عليها نسور الجو الأحياء من أبناء معارك ١٩٤٨ ، فى وصفهم لأبى .. صفات حاولت بجهد جهيد أن أجمعها .. أن ألصقها ببعض .. أن أعيد ترتيبها .. أن أقيسها على ما تسلل منها إلى صفاتى وصفات أبنائى ، فأستعين بها لأرسم صورة للرجل الذى لم أره .. للرجل الذى تمنيت طول حياتى أن أسمع صوته !

قالوا لى جميعًا ، وكأنهم يتحدثون عن ضيف مساء تركهم منذ قليل : كان « عدلى » — وهكذا ينادونه بدون ألقاب أو رتب — شخصية ملفتة .. تركيبة من مجموعة من الصفات المتعارضة .. وقالوا كذلك : إنه كان متحمسًا .. شجاعًا ، وطنيًا ، ثائراً .. عنيداً .

ولا شك فى صحة ما قالوه ، فى تركيبى بعض هذه الصفات ، وهى لا شك قد جاءتنى منه ، سكبها فى دمى وهو يهب حياته للجهاد .

قالوا لى أيضًا : إنه كان مرحًا ، ولكنه مرح الحزين الساخر .. سخرية من يستشعر قرب نهايته !

وعندما تتجمع مثل هذه الصفات فى إنسان ما يصبح وجوده كله بصمة يطبعها فى إصرار فوق صفحة الحياة . . وعندما أنعم النظر فى صور أبى ، وأحاول أن أحلل طريقة جلسته ، ونظرته إلى من حوله ، أتبين حقًا ما يكاد يطابق هذه الأوصاف . فى صورته تختلط الضحكات بالأسى . المبالاة باللامبالاة ، الواقع بالأمل !

وقالوا لى كذلك : إنه كان يوزع « قفشاته » ونكاته اللاذعة على كل من حوله . . فإن لم يجد فريسة لسخرياته صبها على نفسه ! . . ولست أدرى لماذا أتصور أبى دائمًا وكأنه يصنع سدًّا عاليًا من الذكريات المرحة ، يحمى سيرته من الضياع تحت عاديات أمواج النسيان . . وكم خيّل إلىّ أن أبى أراد أن يموت فوق تل من الضحكات!

وتمضى أحاديث الرجال . تضيف إلى صورة أبى — التى أسعى وراءها — مزيداً من الأضواء والظلال . . أحاديث تعمق مشاعرى . تربط بينى وبين ماض أحاول أن أعيش فى لحظاته .

قال لى اللواء طيار « شفيق حسيب » ، الذى زامل أبى — منذ تخرجهما سنة ١٩٤١ — فى السرب الرابع الجوى : « لقد حصل والدك أول الأمر على طائرات من طراز « أوراكس » ، وهى قاذفات خفيفة . . ثم حصل على أول دفعة من طائرات « آنسون » ذات المحركين ، وهى طائرات كانت مخصصة للرحلات والاستكشافات الطويلة المدى ، وكنت أنا وقتها قائد هذا السرب » .

المرح هو تسليتهم ، وكان البطل الشهيد محمد عدلى كفافى هو محور الصداقات العديدة لزملائه الطيارين ، وسط الخط الدائم فى عملهم وقتالهم ، وهكذا يقول زملاؤه . لقد أراد أن يموت فوق تل من الضحكات .

ويقول الطيار القديم إن « عدلى » قام بعدة رحلات على هذا الطراز من الطائرات ، فوق الصحراوين الشرقية والغربية ، وعلى امتداد ساحل البحر الأحمر . وكذلك قام بعدة رحلات طويلة إلى حيفا وبيروت ودمشق وقبرص .. وقتها كانت هذه الرحلات تعتبر طويلة .. وفى عام ١٩٤٨ ، نقل من سرب « الآنسون » إلى «السرب الثالث — مواصلات » ، ليطير على طائرات « داكوتا » ذات المحركين . وهى مخصصة لنقل الركاب والجنود وإسقاط المظليين . وكان ذلك مع بداية حرب فلسطين ، فقام بنقل الجنود والضباط إلى الجبهة مرات عديدة . واشترك فى الغارات الجوية الناجحة على إسرائيل . بهذا الطراز بعد تجهيزه بحاملات القنابل . وكانت هذه العمليات تعتبر مغامرات ، نظراً لبطء هذا الطراز من الطائرات ، وعدم استطاعته الطيران على الارتفاعات العالية بغية تفادى الطائرات المطاردة المعادية ، ومراوغة المدفعية المضادة للطائرات .

وكان رجوعه بعد كل غارة من هذه الغارات يعتبر نجاحاً عسكرياً ، خصوصاً بمثل هذه الطائرات ، وفى هذه الظروف التى لم تكن تكفل الحماية الجوية لقاذفات القنابل .

وفى خريف ١٩٤٨ ، وصلت أولى الطائرات من قاذفات القنابل الثقيلة ، وكانت من طراز « ستيرلنج » ذات الأربعة محركات . ويقول اللواء « شفيق حسيب » : إن « عدلى » كان — بطبيعة وضعه وروحه — من أوائل الطيارين الذين تم اختيارهم لقيادة هذه الطائرات .

وعلى هذا الطراز من الطائرات ، قام بعدة غارات ليلية على المستعمرات الإسرائيلية ، وكانت كلها غارات ناجحة ، وكانت العمليات — فى هذه المرة — تقوم من مطار غرب القاهرة بطريق مصر الإسكندرية الصحراوى . وختم الرجل كلامه معى بقوله :

« وكان مبتسمًا دائماً . لا تفارق الابتسامة شفتيه ، دمث الخلق ، خفيف الظل .. رحمه الله » .

وذات يوم ، طلبت إلى العميد طيار « أبو بكر مرسى » — فى محاولة لمعرفة المزيد عن أبى — أن يروى لى ذكرياته . قال الرجل : « فى ذاكرتى صورة لوالدك .. كان — رحمه الله — ذكى الفؤاد ، زكى البصيرة ، وسيما ، طويلاً ، أبيض ، أخضر العينين ، أصفر الشعر ، عريض الكتفين ، مستدير الوجه ، مقرون الحاجبين ، مجعد الشعر .. وكانت هذه الملامح الجسدية تختلط بملامح نفسية وسلوكية محددة .. كان كثير النكتة ، حاضر البديهة ، لا يميل إلى الجد المتزمت » ..

ويستمر الرجل فى حديثه ، فيؤكد لى أنه قد عاش مع والدى وقتا طويلاً .. فقد تزاملا فى سكن الضباط بمطار ألماظة ، وكان وقتها المطار الرئيسى فى مصر كلها — فى هذا المنزل ، تعايش الطيارون : « أبو بكر » ، « نجاتى » ، « عدلى » ، « العربى » ، « سعيد » ، « زقلط » .

ولقد ظل من كُتِبت لهم الحياة من زملاء أبى ، فى خدمة الطيران .. يقدمون خبراتهم للأجيال التالية ، ووصل بعضهم إلى مراكز القيادة ،

مثل الفريق أول « صدقى محمود » ، والفريق « مدكور أبو العز » ، واللواء « يحيى الشناوى » ، واللواء « السيسى » وغيرهم .. وتلاميذ هؤلاء هم الذين أشعلوا سماء العدو فى حرب رمضان ١٣٩٣ هـ. (أكتوبر ١٩٧٣ م.) .

هذه صورة مبسطة للسلاح الجوى المصرى : ظهوره ، تطوره ، رجاله ، عملياته .. ولقد خدم فى هذا السلاح أشجع الرجال وأشرفهم حقًا .. بعضهم أشعل سماء ١٩٤٨ ، واحترق وسط اللهب . . ومن هؤلاء الشهداء : قائد السرب « نور الدين محمد نصر الدين » ، وطيار أول « سعد طارق الدوينى » ، وطيار أول « تحتمس كامل غبريال » ، وقائد السرب « عبد الحميد أبو زيد » ، وقائد السرب « سيد عفيفى الجنزورى » وطيار أول « مختار محمود » ..

وإذا كان هؤلاء قد قدموا أرواحهم فداء لمصر ، فهناك من ترفق بهم القدر ، فاكتفى بأن أخذ منه قطرات من دمه ، نزفها جرح فى معركة شرسة .. وأذكر من هؤلاء اللواء طيار « عمر شكيب » ، الذى جُرح فى نفس الوقت الذى أسر فيه زميله اللواء طيار « عبد الرحمن عنان » .

ويقول اللواء « عمر شكيب » عن زميله « عدلى » إنه كان مخلصًا متفانياً فى حب إخوانه ، وحاميا لضباط سربه كأنهم أولاده ، على الرغم من صغر سنه .. ويقول عنه كذلك إنه كان يقوم بغاراته ليثأر لهؤلاء الشهداء ، الذين يتساقطون كأوراق الخريف ، فكان يسمى كل عملية يقوم بها باسم أحد أقرانه !

صورة طريفة ، خلال فترة حرب ١٩٤٨ ، لبعض المتطوعات المصريات فى سلاح الطيران الملكى المصرى حينئذ – ويظهر الشهيد محمد عدلى كفافى ومعه بعض زملائه قائد سرب عمر شكيب وقائد سرب على إمام وقائد سرب يحيى الشناوى وآخرون .

ويعض «عمر شكيب» على شفتيه ليكبح شجونه، وهو يذهب بعيداً عبر الذكريات، ويقول: «كانت معادلة الموت والطائرة والأرض تؤرق «عدلى»، فهو يحب طائرته، ويحب أرضه، ويتمنى الشهادة!..»

وسنرى يا قارئى العزيز، كيف تحققت هذه المعادلة. وحقق له الله الشهادة فى ظروف ذات طابع خاص، وهو الذى كان يقابل الموت كل يوم فى غاراته الناجحة. محوما بين ارتفاع وانخفاض وسط المستعمرات الإسرائيلية الدفاعية الصماء، بعيداً عن أرضه التى أحبها وأحب عبيرها حتى الثمالة!

فى يوم ١١ نوفمبر سنة ١٩٤٨. أضيف اسمه للقائمة.. قائمة الشهداء. شهداء القوات الجوية.. ولا يزال الاستشهاد أمنية سامية لكل من يعمل فى الطيران. منذ اشتركت القوات المصرية فى القتال من أجل فلسطين، فى أولى معارك سنة ١٩٤٨ حتى معارك العبور الأخيرة، فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣.

هكذا عاش أبى ومات كأنه قذيفة صغيرة الحجم، شديدة اللمعان، تعبر بسرعة سماء وطننا، ذاهبة إلى مصير محتوم مجهول!..

وكنت — وأنا أسمع حكاية أبى — أغيب عن الوجود لحظة.. أجد نفسى خلالها فريسة لسؤال شائك وصعب: إن القدر يختار لكل إنسان نهاية مناسبة، ولكن هل يستطيع الإنسان أن يختار لنفسه النهاية التى تروق له؟.. هذا هو السؤال وعن الجواب أحدثكم فى القصاصة التالية.

« قصاصة رقم ١١ »

وجمح النعش الطائر براكبه !

« من المؤكد أنه ما كان يريد أن يشعر بآلام خالد بن الوليد فى شيخوخته .. يبكى كالطفل بين ذراعى الأهل لبعده عن الميدان ، بالرغم مما كسا الجسد والنفس من آثار الجراح » !

أحاول الآن السيطرة على انفعالاتى ومشاعرى قدر الطاقة ، وإن كانت الكلمات بين يدىّ تدعونى صراحة إلى الصراخ .. إلى البكاء . فللكلمات — فى هذه المرة — مرارة ، إنها مشحونة بالحزن ، مفعمة بالشجن .. الكلمات — فى هذه المرة — تمس الكيفية التى غاب بها أبى عن الحياة .. ولا أشك يا قارئى فى أنك ستلتمس الأعذار لى ، وتقدر الانفعالات التى تعصف بى .. فقد ظلت طاقة الحزن فى داخلى محبوسة سنوات عمرى كله ، ترقد فى استرخاء فى نفسى ، وتسكن فى عمق الضلوع . وقد آن الأوان الآن للإفراج عن الدموع الحبيسة ! ..

كنت فى ذلك اليوم طفلة ، رصيدى فى الحياة ثلاث شموع .. ورصيد أخى أقل من أيام الأسبوع الواحد! .. كان اليوم هو ٩ نوفمبر سنة ١٩٤٨ .. وقد استيقظ أبى مبكراً ، وأيقظ زوجته الحبيبة ، والشمس بعد فى خدرها .. وتناول الاثنان فطورهما . ولم يتبادلا فى هذا الصباح الحديث كالمعتاد ، إذ ضمهما صمت واجم ، ولكنه وادع ! .. كانا يتحدثان فى ذلك الصباح بالنظرات ، ومن المؤكد أنها لم تكن نظرات كل صباح !

وتندفع الصور إلى رأسى ، وتمتلئ الغرفة حولى بمئات الصور لأمى فى أوضاع متعددة ، وهى تحكى لى حكاية هذا

اليوم بكل التفاصيل .. تحكى فى إصرار ، وكأن كل ما تبقى لها فى الحياة هو هذه الحكايات .. وكأن هذه الحكايات هى التى تربطها بالحياة ؟

قالت لى أمى : « فى هذا اليوم ، حرص والدك على الصلاة .. غاب دقائق عن الحياة ، فى لقاء مع ربه ... وكأنما كان يتلقى منه موعداً للقاء الكبير ! .. وبعد الصلاة ، بدا أكثر حيوية ، وتفتحت فجأة شهيته للحياة ! .. اندفع إلى سرير الصغيرين وقبلها ، وأخذ يتأملهما طويلاً ، وكأنه ينقل صورتهما ليحفظها فى مقلتيه ! .. ثم جلس إلى جوارهما على غير عادته وهو يتأهب للانطلاق لواجبه .. وجاءت أمى وجلست إلى جواره . وفى الغرفة الصغيرة اجتمعت كل الأسرة .. وفجأة ، زمجر محرك سيارة صغيرة أمام الباب .. كانت سيارة أبى العسكرية قد وصلت .. فاتجه بخطوات ثابتة نحو الباب ، وحرص ساعتها على ألا تلتقى عيناه بعينى أمى !

ووصل أبى إلى مطار « ألماظة » ، وصعد بسرعة إلى طائرته ، واتجه شرقاً ليسهم بجهده فى المعركة . وظل أبى وطائرته فى المطارات الأمامية لمدة يومين .. ويقال إنه قد وفق إلى حد بعيد فى هذه المهمات الأخيرة ، وكان من أبرزها الإغارة على « تل أبيب » .. وما لبث أن انطلق بطائرته متجهاً إلى الغرب ، ليهبط فى مطار « ألماظة » .. إذ حان وقت راحته .

* * *

كان مطار « ألماظة » ، فى ذلك اليوم يشهد حركة غير عادية .. فالجميع يعملون بحماس ملحوظ ، والطيارون منهم يتسابقون للصعود إلى الطائرات ، ويتعانق الذاهبون مع العائدين ، وجو القتال يحتضنهم جميعاً ... ووسط كل هؤلاء ، وقف أحد الطيارين إلى جوار طائرته مهموماً ، فتوجه أبى إليه ، وكالعادة أطلق عليه قفشاته ولذعاته .. ولكن الزميل لم يستجب لروح المرح والدعابة .. ودار بينهم نقاش !

كان هذا الطيار يشعر بحزن عميق .. كان ثمة هاجس فى داخله يؤكد له أن الصعود هذه المرة بلا هبوط .. مشاعر تنتاب الإنسان عادة ، لا تستند إلى دليل أو نذير غير قلب وضمير صاحبهما .

وعبثا حاول الرجال إقناع زميلهم هذا بأن يترك تشاؤمه فوق الأرض ، ويصعد . وهنا اندفع أبى ، وأعلن قراره بالقيام بهذه المهمة بدلا من زميله !..

وذهل الجميع ، إذ أنه كان عائداً لتوه من رحلة عمل مرهقة ، وموفقة .. ولكن حماسه أسكتهم ، وإصراره جعلهم يمسكون كل اعتراض ، وقد أخذوا بتفاؤله ..

وعانق أبى زميله .. تعانق التفاؤل والتشاؤم .. تعانق الأصل والبديل! . وصعد أبى إلى الطائرة مع زميله قائد السرب « مصطفى صبرى عبد الحميد» وارتفعت أيدى الزملاء تحييهم .

وارتفعت عجلات الطائرة ، ثم دارت الطائرة دورة فوق سماء

المطار .. لكنها لم تكمل الدورة ، فقد انفجرت فى الهواء ! .. تمزقت أحشاؤها ، وامتلأ الجو كله بدخان أسود كريه ! .. وامتلأت كل العيون المتطلعة بالدموع ، فقد تحقق هاجس الطيار المتشائم .. وتناثر أبى وزميله بين الزملاء وفوق أجسام الطائرات الرابضة فوق الممرات !

وقد حاولت الوصول إلى تفسير هذا الذى حدث ، ولكن التفسيرات اختلفت ...

قال البعض إن هذه الطائرة كانت من مجموعة الأسلحة الفاسدة .. وقال البعض إنها كانت تعانى من خطإ فى تصميمها ، يجعل ركوبها مخاطرة .. وأكد البعض أنها كانت مؤامرة من القصر الملكى للقضاء على أبى ، والتخلص منه بنسف الطائرة وهو فيها ، لأنه كان من المغضوب عليهم من القصر ومن عملاء القصر لفدائيته وثوريته ..

غير أن المؤكد أن أحداً ما كان يتوقع أن يستقل هو تلك الطائرة بالذات ، فقد كان متغيبا عند ما صدرت الأوامر للطيارين ، وما كان أحد يستقرئ الغيب ، ويتصور أنه يقدم على ركوبها — وهو بعد عائد لتوه من رحلة — ليكسر تشاؤم زميله .. ومن هنا أستبعد احتمال وجود تدمير لتخريب الطائرة ونسفها .. ولو كانت هناك مؤامرة من هذا القبيل ، فمن المستبعد أنه شخصياً كان هدفها !

التعليل المعقول هو أنه تطوع لقيادة الطائرة إثر وصوله فى أعقاب جولة قام خلالها بعدة غارات على المستعمرات الإسرائيلية ، فكان بطبيعة الحال مرهقاً كبقية زملائه ، لا سيما أن قيادة الطائرات التى كانوا يستخدمونها — على اختلاف أنواعها . الجديد منها والقديم — كانت مضنية .

هكذا كانت ظروف القتال إذ ذاك . وللطاقة البشرية حدود ، لا سيما فى مضمار الطيران الحربى ، والمهمات الجوية العتيقة !

* * *

وأيًّا كان التعليل . فإنه مات بسرعة .. ولست أدرى إن كان قد قابل الموت مبتسما كعادته . أو أنه فزع من هول ما حدث ، أو أنه تألم ، أو أنه عانى كل هذه الانفعالات معا .. المؤكد أنه عانق الموت فى طائرته ، واستشهد فى ردائه العسكرى ، ودفن فى تراب مصر الحبيبة .. وهذا ما كان يرجوه !

والمؤكد كذلك أنه ما كان يريد أن يشعر بآلام خالد بن الوليد وحسراته ، إذ قال وهو على فراشه : « ليس فى جسدى شبر إلا وفيه طعنة رمح ، أو ضربة سيف .. وهكذا أموت على فراشى كما تموت العير ، فلا نامت أعين الجبناء » !

أجل ، كان « خالد » يتمنى الموت فوق صهوة جواده ، وفى يده الراية ! .. وهكذا كان والدى ، فيما أعتقد . وأحسست بأن ميتته هذه كانت طبيعية ، ومنطقية فى نظره ، فمن العار أن يموت المقاتل فى فراشه ،

وأن يموت الطيار فوق الأرض .

وإذا كان موت أبى يفجر طاقة الحزن فى وجودى ، فإن موته بهذه الكيفية يضع الحزن كله بين ذراعى الفرحة ، والفخر ! .. ولكن ثم مسألة شغلت تفكيرى .. لم تكن الطائرة التى ذهب أبى معها طائرته .. وكان الرجال يسمونها « النعش الطائر » ! .. وقد اعتدت أن أتساءل دائماً : هل أدركت هذه الطائرة الجامحة ، أن الذى ركبها فى ذلك اليوم لم يكن فارسها الأصلى فتمردت عليه ؟؟

سؤال جعلنى أقارن بين خصائص العلاقة بين الفارس وجواده ، والعلاقة بين الطيار وطائرته ! .. وعلى الرغم من عدم التماثل بين الحالتين ، فقد أحسست فعلاً بأن الطائرة هنا قد جمحت ، وأصرت على عدم قفز السدود الموصلة إلى قلوب الأعداء بدون فارسها الأصلى .. ولم تجد الطائرة خلاصًا إلا بأن تضرب بأقدامها وذيلها الهواء ، وتلقى بنفسها وبمن عليها فوق الأرض ! .. هذا هو إحساسى ، وقد حرصت على أن أبسط لكم — منذ السطور الأولى — أحاسيسى كما هى ، ولو لم تكن قد نضجت بعد!

* * *

أخذت الأحداث بعد هذا تتداعى بسرعة مثيرة .. بنفس السرعة التى انفجرت بها طائرة أبى فى الهواء ! .. وإذا إذاعة القاهرة تقطع إرسالها فجأة ، وتعلن إلى الأمة استشهاد قائد الأسراب « محمد عدلى

فى إحدى المناسبات الشخصية لأحد زملائه ، يظهر البطل الشهيد محمد عدلى كفافى بالملابس المدنية ، كان إنساناً وأخاً وأباً للجميع ، هكذا يقولون .

كفافى » ، وزميله قائد السرب « مصطفى صبرى عبد الحميد » .. وكانت إذاعة مثل هذه الأخبار فى « راديو » القاهرة — فى مثل هذه الفترة — أمراً عادياً ، ومتبعاً ..

ولم تسمع أمى النبأ عند إذاعته ، إذ كانت مشغولة بصغيرها « بهجت » ذى الأشهر الثلاثة من العمر .. وبعد دقائق من إذاعته ، حضر جدى ، الذى كان فى إجازة بالقاهرة — وكان إذ ذاك مديراً عاماً للتعليم بمديرية قنا — فنقل إليها المأساة فى ترفق وتدريجياً .. قال إن « عدلى » قد أصيب إصابة طفيفة . وطلب منها أن ترافقه إلى بيته مع طفليها .. ولكنها لم تكد تصل إلى بيت جدتى ، فى حى العباسية ، حتى عرفت الحقيقة .. وإذ ذاك فقدت اتصالها بالدنيا .. ذهبت فى إغماءة طويلة ، ونقلت إلى المستشفى لتعالج من انهيار عصبى حاد ..

أما ما حدث لأمى بعد ذلك ، فأمور كثيرة ظلت عيناى تلتقطانها طيلة هذه السنوات الطويلة ، وظلت أذناى تستقبلانها ليالى كثيرة ، وسوف أروى لكم هذا فيما بعد بالتفصيل ..

أما أنا .. فإن الذى حدث قد فجّر فى أعماقى انفعالات ومشاعر كثيرة ، تمس كل شىء ، حتى العلاقة بينى وبين نفسى .. وهى لا تنفك نشيطة ، بل إن السنين تزيدها نشاطا . وسأروى لكم هذا الآن بأمانة ..

فى أوراق بضع ذكريات شاحبة عن جدتى لأمى وجدتى لأبى ، وقد قصصت عليكم بعض هذه الذكريات . ولكنى هنا أعود إليها من

جديد ، إذ أتبين أن ما فى هذه الأوراق يوجّه ضربة عنيفة إلى ما أسميه نظرتى الواقعية للأمور ..

إننى أستعيد ذكرى موقف جدتى من التحاق أبى بالكلية الحربية ، ومن زواجه بأمى .. فتتفجر قائمة طويلة من التساؤلات فى رأسى : هل كان قلب جدتى « منيرة هانم » يشعر إذ ذاك ، بما حدث بعد ذلك بسنوات طويلة ، ومن ثم عارضت بشدة التحاق ابنها بالكلية الحربية ؟ .. وهل كانت جدتى لأمى ، « نجية هانم عبد الحميد » تشعر بأن عريس ابنتها قصير العمر ، ومن ثم عارضت زواجه منها ؟ .. لنطرح المسألة بشكل أكثر شمولا : هل يوجد فى قلوب الأمهات من الإرهاف ما يوحى إليهن مسبقا بما سيحدث للأبناء ؟ .

لقد سمعت كثيراً من الحكايات عن هذه الظاهرة ، ولم أكن أصدقها . فليس فى طبعى ميل إلى تصديق وجود حاسة التنبؤ عند الإنسان . ولو كان مصدرها قلوب الأمهات .. أميل دوما إلى ربط النتائج بالأسباب ووصل العلل بالمعلولات . ومن ثم فأنا أرفض ما يقال عن هذه الأحاسيس الغيبية ، التى تصور شعور الإنسان « رادارا » يستشف أحداث الغيب والمستقبل .. ولكن ها هى ذى واقعيتى تواجه هذه المرة الاختبار . ولقد بدا الاختبار بسيطا ، أشبه بوخزة الدبوس ، ثم اتسع حتى أغرقنى فى الآلام . وكان محور حيرتى هنا هو : هل كانت الجدتان تحدسان سلفا ما كان مقدّراً أن يقع ؟ أم أن المسألة كانت مجرد مصادفة ، مجرد

ضربة حظ ؟ .. لقد كنت أحياناً أهرب من التفكير ، فأقول إن المسألة كلها مصادفة .. كنت أمارس فى هذه اللحظات حيلة النعامة المشهورة ، وهى تخفى الوجه فى الرمال ! .. ولكن السؤال السابق كان يطاردنى .. يتحدى واقعيتى ، ويستعصى على عقلى .. كان السؤال فى عمق النفس ، يربض فى اللاوعى كالعقدة النفسية !

هناك ثلاثة عناصر مؤكدة ، وثابتة : قلبا الجدتين ، وأبى ، والجيش .. كانت مشاعر جدتى لأبى وجدتى لأمى تربطان بين التحاقه بالجيش وبين نهايته .. ومن ثم أوجست الأولى من التحاقه بالكلية الحربية ، وحاولت إقناعه بالالتحاق بكلية الطب ... وأوجست الثانية ، فعارضت مراراً زواجه بابنتها ..

لقد ربطت السيدتان بين مستقبل الشاب وبين العسكرية ، على الرغم من أن كلا منهما لم تكن على علاقة بالأخرى ! ولقد أكدت الأيام صحة توقعهما .. صحة ما استشعره « الرادار » السرى الكامن فى قلوب الأمهات .. ففقدت الأولى ولدها ، وترملت ابنة الثانية !

ذهب أبى ... غاب عن دنياى قبل أن أعرف معنى الأبوة والبنوة ! ..

وعشت مع أمى وذكرياتها الطويلة المعقدة ، فهى « تركيبة » مثيرة من الذكريات ، يختلط فيها الواقع بالخيال .. الحلو بالمر .. الضحكات بالدموع ! ..

ولكن حديث الذكريات يطول .. فلتكن له قصاصة جديدة !

العزف على أوتار الذكرى

« المشكلة فى حالتى تتمثل فى أننى اكتشفت ، بعد عشرين عاماً ، مشاعر البنوة . سعيت إليها حتى وجدتها . . استحضرت من ضمير الزمن أبى الغائب . . جعلت الماضى حاضراً » !

فى حياة كل إنسان لحظة تترك فى هذه الحياة تأثيراً هائلاً ، تأثيراً قد يمتد حتى نهاية العمر .. إنها قد تخلّف فى داخله ذكريات العمر كله ، أجمل ما فى العمر وأعز ما فيه من أحداث — حلوها ومرها — فيظل يحمل هذه الذكريات فى أعماقه . . يسترجعها حين ينفرد بنفسه ، يسعد بها أحياناً أو يتعذب بها أحياناً أخرى .. وسواء سعد أو تعذب ، فإنه فى كل مرة يشعر بأنه وذكرياته شىء واحد .. كل لا يقبل تفككاً . ولا انفصالا ، ولا تعديلاً !

هذه اللحظة ، لحظة الذكريات ، تمثلت فى حياتى خلال الأيام الطويلة التى أعقبت اكتشافى الطريقة التى مات بها أبى .. فقبل هذه اللحظة لم أكن « ابنة » ولم يكن لى « أب » ... كانت هناك « مسافة بيضاء» فى جملة حياتى .. كانت هناك كلمة ناقصة فى قصة وجودى .

أكثر من عشرين عاماً وأنا أحمل فى تركيبى هذه « المسافة البيضاء » ، الكلمة الناقصة ، كحقيقة قائمة ، طبيعية ، مسلم بها .. فلم أشعر بها ولم أشتق إلى استكمالها .. كنت كالمريض الذى يعيش برئة واحدة ، قانعا بها ، وهو فى غاية من السعادة ، حتى يكتشف فجأة ، ذات يوم ، أن الطبيعى هو أن يكون له رئة ثانية .. فإذا به يتعذب لغيابها ويعذب من حوله ! .. لقد كان أبى غائبا وكنت

سعيدة فى غيابه . أعترف بأننى لم أشعر بنقص ما فى حياتى .. فمن أين يكون النقص ؟ .. كيف أدركه وأشعر به وقد غاب الأب فى سنوات عمرى الخضراء ، وأنا لا أعرف بعد ما معنى الأبوة ؟!

المشكلة فى حالتى تتمثل فى أننى اكتشفت — بعد عشرين عاماً — مشاعر البنوة ! .. سعيت إليها حتى وجدتها .. استحضرت من ضمير الزمن الأب الغائب .. جعلت الماضى حاضراً !

* * *

لقد كان أبى موجوداً دائماً ، وبرغم أننى .. وكان حضوره حيًّا ويقظا .. حضوراً له أشكال متعددة : صورة زيتية كبيرة ، معلقة فى « صالون » بيتى ، واسم أحمله فى بطاقتى الشخصية ، ونفس الاسم مثبت على لوحة أحد شوارع حى مصر الجديدة فى القاهرة ، منذ السنة الأولى من عمر الثورة .. وهو كذلك منقوش بماء الذهب ، على النصب التذكارى بمقابر الشهداء بالغفير .. النصب الذى كنت أزوره من حين إلى حين ، فى المناسبات وغير المناسبات ، فتلك من العادات التى غرستها أمى فى وجدانى .. إذ كان مما لفت انتباهى فى عاداتها ، أن مقابر الشهداء بمنطقة « الغفير » كانت مكان نزهتها المفضل ! .. وكذلك كان لأبى « حضور » آخر ، تمثل فى الأحاديث الدائمة لوالدتى عنه .. وكذلك أحاديث وذكريات زملائه ، ممن لم يكن لهم شرف القيد فى سجلات الشهداء .

ولكننى وحدى ، دون خلق الله ، التى لم يكن « حضوره » يعنى شيئاً ما لها ، مع أننى — كما أقول دائماً — واحدة من بصماته فوق مجرى الزمن .. لم يكن يعنينى أن أكتشف وجوده ، إذ كان الحضور والغياب عندى بالنسبة له سواء !

غير أن الأمر انتهى بى ، والزمن يضيف لسنوات عمرى تجربة بعد تجربة ، إلى أن أكون فى موقف التحدى مع أبى ... فكل ما حولى يتكلم عنه ، ويتذكره .. كانت أمى لا تكفّ عن الحديث عنه ، حتى أحسست — من وجهة نظرى — بأن حديثها معاد ومكرر .. وأحسست بالحيرة ، أحسست بأن أبى لغز ! .. فصممت — فى شقاوة وإصرار — على « حلّ اللغز » ! .. ولكن ما حدث بعد ذلك كان مفاجأة ، حتى لى أنا بالذات .. فقد عشت اللغز ، أحببته ، ملأ المسافة البيضاء فى جملة حياتى .. أكمل الكلمة الناقصة فى قصة وجودى ! ..

ويوم أن عرفت أن أمى قد رفضت أن تتقاضى تعويضاً عن استشهاده قدره خمسة آلاف من الجنيهات ، ضربت كفاً بكف .. بهذا المبلغ كان يمكن أن نشترى الكثير ، أى شىء ولو « شيكولاتة » مثلاً ، لأنى من عشاقها ! .. وكنت أناقشها فى عناد ماكر ، لا سيما فى فترة الدراسة الثانوية ، فأقول لها : « لماذا فعلت هذا؟ .. كيف تقنعين بصورته فى المتحف الحربى ، واسمه المثبت على لوحة ، اسمًا لشارع كبير فى مصر

الجديدة ؟! .. ألم يكن مبلغ الخمسة الآلاف أفضل من هذا ؟ .. لقد ذهب ، وانتهى كل شيء ... ولكن الحياة لابد أن تستمر ! » .

فكانت ترد فى عصبية وانفعال : « أنا لا أستطيع أن آخذ ثمن دمائه وروحه الطاهرة ! » .. هكذا كانت تجيب ، وإنى لأذكر هذه الكلمات ، كلمة كلمة ، وحرفا حرفا .. فقد نقشت فى ذاكرتى .. وكانت — إذا أنا ألححت فى جدالها — تؤكد أننى صغيرة ، أو طفلة ، لا أستطيع أن أفهم فى تلك السن ، فكنت ألجأ إلى السكوت ، وأنا غير مقتنعة ، حتى لا أغضبها .. كنت آسف حين أتبين ما كانت لجاجتى تثيره فى نفسها !

ولقد كانت أمى جميلة حقًّا ، كما وصفتها من قبل .. وكما كانت زميلاتى فى الدراسة يؤكدن لى .. كانت فى عروقها دماء تركية ، تشيع فى ملامح وجهها حسنا مميزاً .. وكانت فى عينى — كابنة لها — أكثر جمالا وحسنا مما يراها الغير ، ومن الواقع ..

ولقد راحت — بعد أبى — تعيش فى محراب الذكرى ، كأنها تتعبد .. تعاشر الوحدة ، من أجل رجل وضعه القدر فى طريقها .. رجل تزوجته ، فلم يقدّر لها أن تعيش معه أكثر من أربع سنوات ونصف السنة .. وكان من المحتمل أن تفشل حياتهما ، ويسير كل منهما فى طريق لو امتد بتعاشرهما العمر ، ولكن من المؤكد أن أمى رصدت لأبى فى قلبها كل عشق نساء الدنيا ، منذ أمنا الخالدة حواء ..

المؤلفة فى سن الرابعة ، عند ما استشهد والدها

ومرضت أمى وهى فى الثلاثين من عمرها . إذ داهمها المرض الخبيث (السرطان) ، وفرض نفسه عليها حوالى خمس سنوات .. وبالرغم من العمليات الجراحية الكثيرة التى أجريت لها ، والعلاج بالذرة والكهرباء ، ومحاولات الأطباء فى مصر والخارج ، فإنها لم تستطع المقاومة لأكثر من هذه السنوات . وماتت ..

وكنت فى السابعة عشرة من عمرى ، حين انتزعها منى السرطان ،

وذهب بها بعيداً عن دنيانا كلها . وبعد سنوات ، بدأت أفكر فى موتها بذهن تحليلى .. كنت أقول : لماذا هذه السرعة ؟.. شريط سينمائى سريع ، لا أستطيع ملاحقته .. هل أرادت أمى أن تموت شابة ؟ .. أأسرعت إلى العالم الآخر ، وهى بعد جميلة ، لتلحق بأبى ؟

كأنها كانت على موعد معه .. كأنها اشتاقت إليه .. كأنها لم تطق الانتظار أعواما أخرى ! .. ولعل الحوار متصل الآن بينهما ، ولا بد أنها تشكو له كثرة أسئلتى . ولا بد أنه يضحك .. فقد تعود دائما أن يضحك ، بينما كانت هى تستمع إلى حكاياته فى غيظ ! .. وأحسبها كانت تتمنى أن يشد أذنى فى عتاب ، لأننى كنت أضايقها بلجاجتى !

رحلت أمى .. أصدر القدر تعليماته ، كى تلحق بأبى بعد أربع عشرة سنة ، فتركتنى بعد طول معاشرة ، كما تركنى هو قبل أن أجرب عشرته .. بعدها أحسست بالوحدة .. بأننى لقمة صغيرة ، متناهية فى الصغر ، بين فكى اليُتْم !

ولكن .. لا بد أن أمى ترانى الآن ، كما يرانى أبى ! .. كلما تطلعت إلى السماء ، خصوصاً فى أثناء الليل ، أحس بعيونهما تلاحقنى وتحرسنى .. وأشعر بأنهما يدركان الآن مشاعرى التى تغيرت .. يكاد حبل الود بينى وبينهما أن يتصل ، حتى لأخال أننى أكاد أرفع يدى فأمسك كف أبى ، وأدفن رأسى فى شعر أمى الذهبى !

لقلم تغير الوضع الآن . . أدمنت أنا الأخرى العزف على أوتار الذكرى .. سقطت بدورى فى بئر الذكريات اللذيذة ، أشرب منها بدون ارتواء !

كذلك تغير الوضع الآن بزواجى .. اكتشفت ما كنت أجهله .. اكتشفت من خلال تجربة زواجى كل المعانى التى امتلأت بها نظرات أمى الصادقة . . عرفت أن الزواج ليس علاقة أى رجل . . بأية امرأة !

أجل ، اكتشفت من خلال تجربة زواجى مدى حماقة التساؤلات التى كنت أطرحها بينى وبين نفسى ، وأتجاسر أحياناً فأواجه بها أمى : فيما يشبه المساءلة .. اكتشفت أن الزواج فى حقيقته تجربة خاصة جداً ، شديدة الخصوصية بين الزوج والزوجة ..

حقيقة أن تجربتهما قد تشابه تجارب الآخرين ، ولكن لابد من أن يكون فيهما ما يميزها . . ما يجعلها خاصة جداً .. ولو طالت العلاقة بين الرجل والمرأة مئات السنين ، فإن هذه العلاقة يمكن أن تتحول إلى شىء آخر .. شىء يحمل أى اسم غير الزواج .. أى اسم تختاره يكون صحيحاً ، ولكنها لن تكون زواجا أبداً !

من خلال علاقتى بزوجى ، فهمت أشياء جديدة . فهمت لماذا كانت أمى تهرب إلى الصمت من أسئلتى الكثيرة لها .. لماذا رفضت

التعويض المقدَّم لها عن استشهاد زوجها .. لماذا وضعت طفليها فى داخل القلب والعين ، ووهبتهما كل حياتها خلال السنوات التى عاشتها بعد أبى !

دائما ما كنت أقول إنه لم يكن لها حق فيما فعلت ، حين أبت أن تتقاضى تعويضًا عن أبى .. ولكنى صادفت اليوم الذى أدركت فيه أن الحق ما فعلت ، فإن دماء الشهداء تفوق كنوز الأرض قيمة .. إنها أسمى من كل تعويض ، ولو كان التعويض يُقدَّم على سبيل المساعدة على مواجهة الحياة ! .. لقد كنتِ على حق يا أمى ، فإن نظرة وجيزة إلى وجهى طفليك كانت تردك إلى دنيا ذكرياتك ! .. كنت على حق ، فالزوج ليس سلعة تُبادَل فى سوق التعويضات ، مهما كان الثمن .. وليس ثوباً نُغيره إذا ما فقدناه !

* * *

اكتشفت هذا ، ولكن بعد فوات الأوان ، بعد أن تركتنى وحدى ، بعد أن أكملت حولى حصار اليُتْم .. بعد أن رحلت عن دنيانا إلى دنياه .. ولكنى على ثقة من أنها الآن تفهمنى .. وإن كنت لا أدرى بالتحديد مصدر هذه الثقة !

لقد تمنيت فى حياتى أشياء كثيرة ... ولكن ما من أمنية تفوق تلهفى إلى دواء يريح الإنسان من ذكرياته ! .. إنه دواء أوقن أن هناك ملايين تتطلع إليه .. ملايين الناس ممن تطاردهم الذكريات ، فتسرق من عيونهم

النوم ، وتجعل يقظتهم أشبه بالغيبوبة !

إن قصة بحثى عن أبى هى نقطة الالتقاء فى تفكيرى بين أمور عديدة ، قد لا يكون بينها رابط : العلاقة بينى وبين أمى ، كما شرحتها من قبل .. العلاقة بينى وبين أصدقائى .. بينى وبين زوجى وأولادى .. بينى وبين جدتى .. بينى وبين أصدقاء أبى .. بل يصل الأمر إلى أن تتدخل قصة بحثى عن أبى .. حتى فى العلاقة بينى وبين نفسى !

ويشغلنى كذلك — فى ذكرياتى عن هذه الحادثة — لحظة تأمل فى كيفية تدخل القدر .. فما الذى جعل القدر يفصل بين « فاطمة كساب» وخطيبها الأول ، ابن عمها ؟ .. لو لم يحدث هذا ، لكانت أسرة كساب » كلها خارج دائرة الأحزان على أبى ، لتحمل أسرة «كفافى » وحدها قدرها فوق الأعناق ! .. أو لكانت هناك أسرة أخرى بديلة ، تقاسم أسرة «كفافى » الهموم ! .. بل إن ذكرياتى تمضى بى إلى أبعد من هذا : فماذا لو أن جدتى « نجية هانم » كانت قد نجحت فى رفضها لأبى زوجا لابنتها .. إننى أتصور أنه كان سينتظر عدة سنوات أخرى ، حتى يتمكن من إقناعها ، أو من تغير الظروف ليتحقق طلبه ..

هذا هو التصور الذى يتفق مع عناده ! .. ولو سلّمنا بهذا ، فقد كان القدر له بالمرصاد ، يتربص به ، وكان من المحتمل إذ ذاك أن

يموت قبل أن يفلح ، ويموت معه أمله فى الزواج من « فاطمة » .. ولو كان الأمر كذلك ، لما كان هناك زواج .. ولما كنت قد جئت إلى الحياة .. بل لما كان هذا الكتاب – بالأحرى – بين يديك !

* * *

فى لحن الذكريات ، الذى ورثته عن أمى ، مقطع نغمته الأساسية : المشاعر وتصاريف القدر .

هذه المشاعر والتصاريف أمور وقفت عندها طويلاً .. وخرجت بآراء عديدة أضفتها إلى واقعيتى ونظرتى العملية إلى الأمور .. ولا بد من الاعتراف بهذا !

لقد ظهر لى أبى أكثر من مرة ، خلال مناقشاتى مع زملائه الذين رافقوه فى حمل السلاح .

كانت كل أحاديثهم عن أبى يسودها الاحترام العميق .. ولقد هزتنى هذه المواقف من الأعماق ، ولكنها فى مجال تفجير الذكريات أدخلتنى فى دوامة التفكير من جديد ..

وكان محور التفكير هذه المرة هو : ماذا يفعل الموت بالضبط بين الأصدقاء ؟ .. يخيل لى ، كلما تأملت هذه المسألة ، أن الموت « يصفى » العلاقة بين الأصدقاء من كل الشوائب التى تتعلق بها ! .. يسقط من ذاكرة الأصدقاء كل الملابسات .. ويحتفظ للذكريات بالصفاء كله !

هذا هو التفسير الوحيد الذى اقتنعت به، وأنا أواجه الطريقة الرائعة التى يعاملنى بها كل من عرف أبى ذات يوم بعيد .

* * *

وقد كنت أفكر فى وضع هذا الكتاب منذ سنوات بعيدة ، واشتدت رغبتى فى السنوات التى تلت معارك ١٩٦٧ . وبدأت الكتابة ، فقدر لكلماتى أن تصل إليك ، يا قارئى العزيز ، بعد حرب رمضان المجيدة .. بعد معارك ٦ أكتوبر ١٩٧٣ العظيمة .. وقد قدمت أسرتنا هذه المرة نسراً آخر من نسور الجو ، هو ابن خال لى ، استشهد فى اليوم الأول من معارك رمضان المجيدة ... وهو لم يتعدّ الثالثة والعشرين من عمره .

ولقد أحسست ، بعد التكريم الذى لاقاه أبناء الشهداء فى أعقاب معارك ٦ أكتوبر ، أننى لم أعد وحيدة .. إن لى مئات الإخوة ! .. لم أعد اللقمة الصغيرة المتناهية فى الصغر ، بين فكى اليُتْم .. لم أعد اليتيمة التى غاب عنها الأب !

وكذلك رأيت بعينى مواقف عديدة تشابه موقف أمى .. رأيت أمهات وزوجات يطربن عند سماع خبر استشهاد الابن أو الزوج .. رأيت دم الشهداء يتصل ويتسع حتى يصنع دائرة كبيرة مشرقة ، يرقص حولها أصحاب الحظ ..

اكتشفت أن الاستشهاد ليس كارثة بل إنه « هبة » يمنحها الله من

يشاء .. « هبة » تغفر للشهيد كل ما تقدم مِن ذنبه وما تأخر ، وتجعل أبناءه يقولون فى فخر : « نحن أبناء شهيد » !

* * *

بقى — فى دورى مع ذكرياتى — موضوع يتصل « بالبطولة » والأبطال . فقد قال لى أحد أصدقاء أبى ، ذات يوم ، أن أبى كان بطلاً .. والحقيقة أن كلمة « البطل » هذه استوقفتنى كثيراً .. فأنا لا أعتقد أن أبى كان بطلاً بالمعنى التقليدى للبطولة ، أو بالمعنى الذى ينصرف إليه الذهن عادة إزاء هذه الكلمة ! ..

لم يكن أبداً بطلاً على نسق « هرقل » ، يحمل السموات السبع فوق ذراعيه ، مؤكداً قوته الأسطورية .. ولم يكن بطلاً أسطورياً مثل « سيزيف » ، يدفع الصخرة حتى أعلى الجبل فى عناد ، كلما عادت إلى السفح ، مؤكداً صبره الخرافى على مواجهة قدره ! .. لم يكن أبى من هذا القبيل أبداً !

ولو حاولت أن أفسر كلمة « البطولة » التى ينسبونها إلى أبى ، لفضلت التفسير الوجودى لها .. بطولة الإنسان العادى البسيط ، الذى يختار طريقه بنفسه .. الذى يصنع نفسه بإرادته !

هكذا كان أبى فعلاً .. كل أيام عمره القصيرة — الذى لم يتجاوز السابعة والعشرين — تؤكد أنه كان كذلك !

كان بعناد وإصرار يقترب من المشاغبة : يخالف ، ويخاصم .. يحب ، ويكره .. يضحك ، ويوزع الضحكات على من حوله .. يؤدى الواجب ، ويسقط فى الأخطاء! .. كان هو الإنسان العادى .. « تركيبة » متناسقة من الخير والشر . ولأنه كان كذلك فقد أحب الحياة ، وأحب شريكته فيها .. وأحب الوطن ، وأحب شركاءه فى حبه .. وأحب الواجب ، ودفع ثمن حبه حياته !

هذه البطولة « العادية » — إن صح هذا التعبير — هى جوهره ، وهى أيضًا جوهر كل الناس البسطاء الشرفاء ، الذين بذلوا كل ما فى الجهد نحو أنفسهم ، ونحو الآخرين ، ونحو بلادهم .. حتى جاء اليوم الذى وُضعت فيه أسماؤهم وصورهم فى دفتر يوميات الحياة .

* * *

فى رحلة البحث عن أبى ، التقطت عيناى أسماءهم .. أحسست لحظتها بأننى أعرفهم .. أعرف حكاياتهم كلها .. وأعرف أيضًا حكاية البيوت التى تركوها بلا عودة .. فى سجلات سلاح الطيران قائمة بشهداء حرب ١٩٤٨ من نسور الجو .. هؤلاء الذين غسلوا رؤوسهم فى سحب فلسطين .

ولا شك فى أن لكل منهم قصته .. وعشرات من

الأسباب التى تربطه بالحياة : قصة حب قصيرة العمر .. وحبيبة تركها تعيش لذكراه ، أو لعلها أعرضت عن الذكرى وأحبت غيره .. وأبناءه ، وربما أحفاد ، يدقون الأرض فى شقاوة وعناد !

بنفسى رغبة مستبدة فى أن أدق الأبواب التى عاشوا خلفها ، أعانق ببصرى كتبهم ، وملابسهم ، والمقاعد التى جلسوا فوقها ، « ومنافض » سجائرهم !

تستبدّ بى رغبة جارفة فى أن أجلس إلى أولادهم بغير أن نتكلم .. فإن الصمت الذى يصنعه غياب الأب فى حياتى وحياتهم ، يضيف إلى كل لغات الدنيا لغة جديدة ، لغة مسحورة لا يقرؤها غير أبناء الشهداء !

لقد كان كل منهم جملة مفيدة فى « كتاب الحياة » .. وكانت الجملة قبل ذلك أمنية فى ضمير القدر !

لقد كتب القدر فى أيام متعددة أسماءهم تباعا ، فى سجله اليومى ، وكلا منها مسبوق بكلمة « ولد » .. ثم عاد القدر بعد سنوات ، ليكتب نفس الأسماء فى دفتر « أحوال الحياة » .. وفى هذه المرة ، وضع أمام كل اسم لقب : « الشهيد » .

بمشاعر فشلتُ فى ترجمتها إلى كلمات نقلت لكم الأسماء من السجل

..اليومى للقدر فى أثناء حرب ١٩٤٨ .. ورتبتها بحسب تواريخ الاستشهاد.. حسب اليوم الذى اختاره كل منهم ليسبق زميله ، ويحلق عالياً .. عالياً .. عالياً .. فوق كل الأحياء !

* * *

١ – طيار أول : سعد صادق الدوينى
استشهد فى ١٩٤٨/٥/٢٢ فى « رامات داڤيد »

٢ – قائد سرب : نور الدين محمد نصر الدين
استشهد فى ١٩٤٨/٥/٢٢ فى « رامات داڤيد » .

٣ – طيار أول : تحتمس كامل إبراهيم غبريال
استشهد فى ١٩٤٨/٥/٢٢ فى « رامات داڤيد » .

٤ – قائد أسراب : سيد عفيفى محمد الجنزورى
استشهد فى ١٩٤٨/٧/١٨ فى « المجدل » .

٥ – قائد سرب محمد عبد الحميد أبو زيد
استشهد فى ١٩٤٨/١٠/٢٠ فى البحر .

٦ – قائد سرب : نجيب عبد العزيز بسيونى
استشهد فى ١٩٤٨/١٠/٢٩ فى « حلوان » .

٧ – طيار أول : مختار محمود سعيد
استشهد فى ١٩٤٨/١٠/٢١ فى « رفح » .

٨ – قائد سرب : مصطفى صبرى عبد الحميد
استشهد فى ١٩٤٨/١١/١١ فى « أللناظة » .

٩ ــ قائد أسراب : محمد عدلى كفافى
استشهد فى ١٩٤٨/١١/١١ فى « ألماظة » .

١٠ ــ طيار أول : خليل جمال الدين العروسى
استشهد فى ١٩٤٨/١٢/- فى « غزة » .

١١ ــ طيار ثان : إبراهيم نور الدين عبد الفتاح السيد
استشهد فى ١٩٤٨/١٢/٢٨ فى « غزة » .

١٢ ــ قائد سرب : مصطفى كمال عبد الوهاب
استشهد فى ١٩٤٨/١٢/٣١ فى « غزة » .

كلمة أخيرة

قد لايسعنى أيها القارئ العزيز — بعد أن فرغت من قراءة كتابى — إلا أن أتقدم بالشكر لكل من كان لهم الفضل فى إخراج الكتاب بهذه الصورة حتى وصل إلى يديك .

ومنهم السيد الفريق طيار محمد سعد الدين الشريف على المعلومات القيمة التى مدنى بها . واللواء طيار يحيى الشنناى على الوقت الذى أمضاه معى فى أبوة خالصة وكذلك مجهوده فى محاولة الرجوع بذاكرته إلى أكثر من ربع قرن مضى ، والفريق طيار عبد المجيد الرافعى الذى صور لى بدقة تلك الفترة من تاريخ الطيران فى بلادى ، واللواء طيار عمر شكيب بذكائه المعهود وخفة روحه ومحاولاته لمتابعة كل جديد أضيفه لهذا الكتاب .

كما أخص بالشكر الأستاذه سنية ماهر لمراجعتها ومجهودها فى تحريك بعض كلماتى برقة ووضعها فى مكانها المناسب . والسيد الأستاذ عبد الحميد فرحات الذى شاركنى فى مراجعة الكتاب ، والأستاذ دويدار الطاهر ، كذلك من قام برسم الغلاف وإخوانى عمال المطابع الذين قاموا بجمع الحروف وتوضيبها .

شكراً لزوجى الأديب المهندس حسين كفافى الذى كان لى أبا وأخا

وصديقاً ، وشد من أزرى منذ كان الكتاب فكرة فى ضميرى ، وكان يقف بجوارى ونتشاور فى كل كبيرة وصغيرة على مدى أربع سنوات كاملة .

وأخيراً شكراً لك يا قارئى العزيز .

منيرة كفافى

محتويات الكتاب

	صفحة
هذا الكتاب	٩
همسة إلى القارئ : دبوس فى جوف البحر . . .	١٣
قصاصة (١) : الأصيل .. « بنايوس » !! . .	٢٥
قصاصة (٢) : الإنجليز السكارى فى شوارع القاهرة .	٣٥
قصاصة (٣) : « الفكرة التى قادت إلى « ثورة » . .	٥١
قصاصة (٤) : « نجية هانم » تقول : لا ! . . .	٧١
قصاصة (٥) : أسطورة يهودية على مائدة القمار . .	٨٣
قصاصة (٦) : عقرب الثوانى فى ساعة القدر . .	٩٣
قصاصة (٧) : يوم « أحد » يتكرر	١٠٧
صاصة (٨) : مأساة « الأسلحة الفاسدة » . .	١١٥
قصاصة (٩) : المشى فوق السحب المنخفضة . .	١٢٧
قصاصة (١٠) : .. الموت فوق تل من الضحكات ! .	١٤٣
قصاصة (١١) : .. وجمح « النعش الطائر » براكبه ! .	١٥٩
قصاصة (١٢) : العزف على أوتار الذكرى . . .	١٧١

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧٥/٣١٤٤

مطابع دار المعارف بمصر — ١٩٧٥
١/٧٥/١٥٧